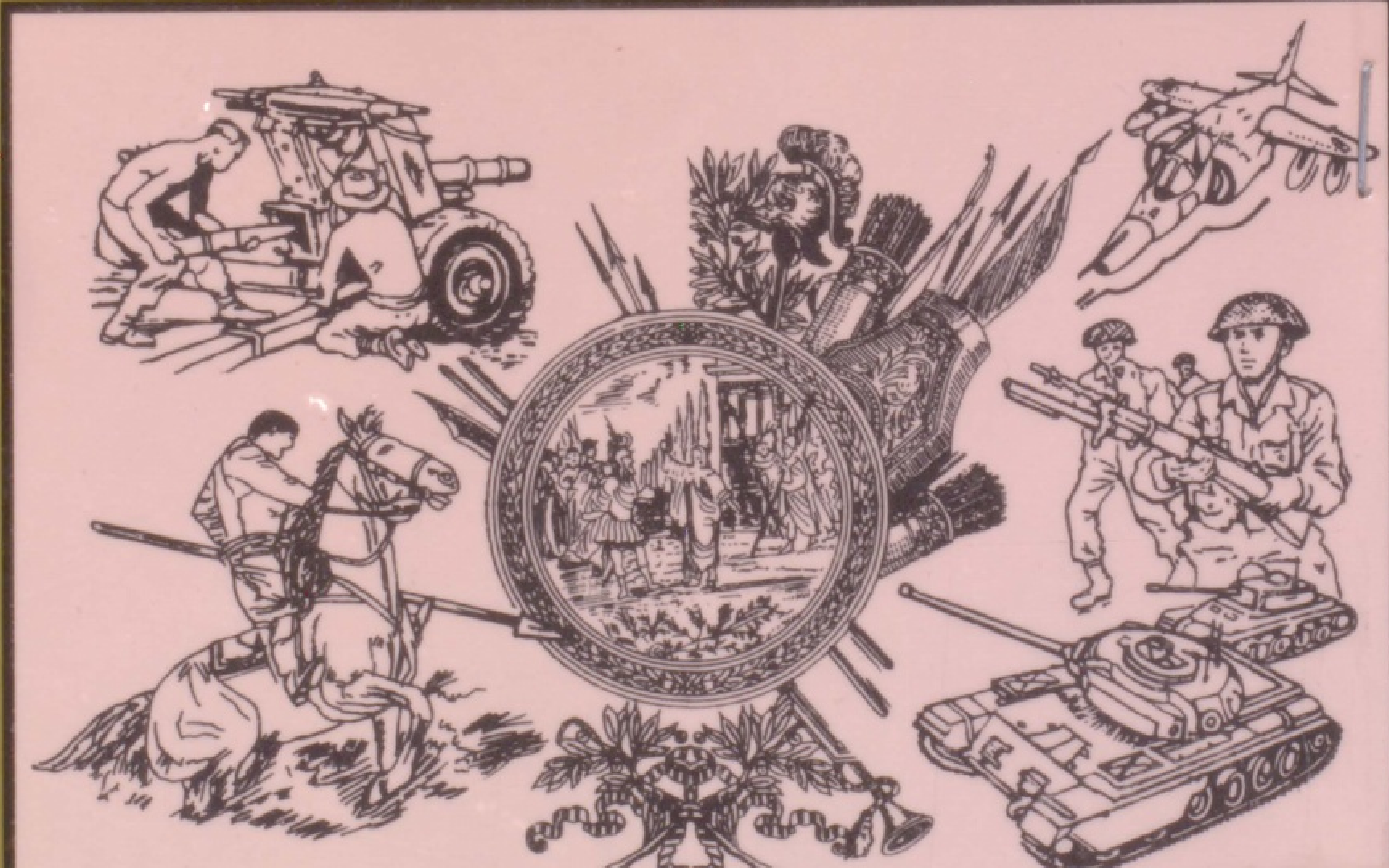
سلسلة حروب واستراتيجيا

حروب المغول

د. أحمد حطيط



دار الفكر اللبناني

سلسلة حروب واستراتيجيا

حروب المغول

دراسة في الاستراتيجية العسكرية للمغول
من أيام جنكيز خان حتى عهد تيمورلنك

د. أحمد حطيط

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني

للطباعة والنشر

كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٤

مقدمة

تقتصر اهتمامات هذه الدراسة على رصد تحركات المغول العسكرية ، ومرافقة حروبهم ، وذكر أهم المعارك التي خاضوها ، في مختلف الحقب التاريخية ، وفي كل الاتجاهات ، بدءاً بجنكيز خان ، مؤسس دولتهم ، مروراً بحفيده هولاكو ، وانتهاء بحملات وغزوات تيمورلنك وخلفائه من بعده ، وذلك بقصد اطلاع القارىء على استراتيجية الحرب عند المغول وتسهيل مهمة الباحثين لوضع خرائط عسكرية علمية شاملة لحروب المغول .

وعليه ، سوف تغيب عن الدراسة جوانب أساسية من حياة المغول تتعلق بتاريخهم السياسي والحضاري ، والتي آمل أن تتاح لي الفرصة ، كي أعقد لها بحثاً مستقلاً في المستقبل القريب .

أفلح المغول ، خلال فترة قصيرة نسبياً من الزمن ، في إقامة امبراطورية مترامية الأطراف ، شملت مساحات شاسعة من آسيا (الصين ، الهند ، ما وراء النهر ،

إيران ، العراقين العربي والعجمي ، القوقاز ، جورجيا ، وآسيا الصغرى . . . .) ، إضافة إلى روسيا الحالية ، ومعظم الأقطار الشرقية للقارة الأوروبية (بلغاريا ، المجر ، وبولونيا . . . .) .

ولا يعود الفضل في تحقيق هذه الإنجازات الهامة إلى كثافة جيوش المغول ، ولا إلى قوة عصبيتهم فحسب ، بقدر ما يعود ذلك إلى تماسك مؤسستهم العسكرية ، المرتكزة ، أساساً ، إلى تنظيمهم العُشري ، المُحْكم البنية ؛ فكان جيشهم مؤلفاً من عدة فرق ، في كلٍ منها عشرة آلاف محارب (تومان) ، والفرقة بدورها مؤلفة من عشر كتائب ، والكتيبة عشرة فصائل ، والفصيل عشر مجموعات ، في كل مجموعة عشرة جنود ، سلاحهم القوس ، والنشاب ، والسيف ، والرمح والمنجنيق .

اعتمد المغول في حروبهم على شبكة من الجواسيس ، عمادها عدد من التجار الذين كانوا يجوبون البلاد ، ويستطلعون أخبارها ، من دون أن يثيروا أدنى رَيْبَةٍ لدى الخصوم ، كما استخدموا شتّى أساليب الخداع والتمويه والمباغتة ، ناهيك عن سياسة « الأرض المحروقة » والبطش والإرهاب والدمار ، مما أشاع حالة من الرعب والزَّمع في نفوس أعدائهم .

توزعت هذه الدراسة في أربعة فصول. بحثتُ في الفصل الأول منها عن أصل المغول وتوزُّعهم القبلي في سهوب منغوليا ، إلى حين توحُّدهم على يد جنكيز خان ، الذي سعى ، بالقوة ، إلى تحقيق مشروعه الطموح ، لإقامة « نظام عالمي » يخضع لسلطانه ؛ فنجح إلى حدٍ كبير في إخضاع معظم بلاد الصين ، وتحطيم الدولة الخوارزمية ، وإضعاف الكيانات السياسية القائمة ، آنذاك ، في إيران والقوقاز وبلاد الروس .

ورصدت في الفصل الثاني مسار النشاطات العسكرية ، في عهد أبناء جنكيز خان ، من أيام أوكتاي حتى عهد قوبيلاي ، حيث استكمل المغول سيطرتهم على الأجزاء المتبقية من الصين ، واجتاحوا أوروبا ، بعد أن استولوا على كامل المنطقة الممتدة من جبال الأورال إلى شبه جزيرة القُرم ؛ فتوغلوا في بلاد الروس ، وأحرقوا موسكو ، ودمَّروا المدن الهامة كموروم ، وياروسلاف ، وفلاديمير ، إضافة إلى الإمارات الروسية الواقعة في أعالي نهر الفولغا ، ثم انتقلوا إلى أُوكرانيا ، واحتلوا حاضرتها ، مدينة كييف . وظل المغول يتابعون فتوحاتهم في أوروبا الشرقية ، حتى وصلوا إلى بولونيا وبلاد المجر .

وخصَّصتُ الفصل الثالث لتسليط الأضواء على الأعمال الحربية في أيام هولاكو وخلفائه من الإيلخانات ؛ فتتبعت حركة هولاكو باتجاه إيران ، وبلاد الإسماعيلية والعراق العربي ، التي توَّجها بإسقاط بغداد ، في سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ، والقضاء على الخلافة العباسية فيها . ثم واكبت حركته إلى بلاد الشام ، حيث بسط نفوذه على أجزائها الداخلية ، ولم يتوقف اندفاعه ، في تلك البلاد ، إلاّ بعد الهزيمة التي لحقت بجيشه في عين جالوت ، في ٢٥/ رمضان سنة ٦٥٨ هـ/ ٢ أيلول ١٢٦٠ م ، على يد المماليك . كما ألمحت في هذا الفصل ، إلى المحاولات المتكررة التي قام بها خلفاء هولاكو ، أباقا وغازان ، على وجه الخصوص ، للسيطرة على الشام . لكن هذه المحاولات كانت تصطدم بمناعة المقاومة المملوكية مما أفشل المشروع المغولي الهادف إلى بسط النفوذ والهيمنة على الشام ، كمقدمة ضرورية للولوج إلى الديار المصرية .

أما الفصل الرابع ، فأفردتُه لدراسة استراتيجية الحروب التي خاضها تيمورلنك على جبهات مختلفة : في خوارزم ، وبلاد الجتا (بلاد الجغتاي) ، وإيران ، والعراقين ، وجورجيا ، وبلاد القبجاق ، والشام ، وبلاد

السلطنة العثمانية ، والهند . . . ، من دون أن تراعي هذه الحـروب الاعتبارات الجغـرافية ، أو تتلمس مشـروعـاً سياسياً ، واضح المعالم، على غرار ما خطَّط له ونفَّذه جنكيز خان .

يبقى أن أشير إلى أن ما حقَّقه المغول من إنجازات على الصعيد الحربي ، إنما يعود ، في الدرجة الأولى ، إلى حالة التفتت والتداعي السائدة ، آنذاك ، في معظم الأقطار التي تعرَّضت للغزو المغولي ، سواء في آسيا أم في أوروبا ، وبخاصةٍ في الساحتين الصينية والإسلامية .

بيروت في ٥ / ٦/ ١٩٩٣

أحمد حطيط

الفصل الأول
جنكيز خان وبناء الامبراطورية المغولية

أولاً: المغول وتوزعهم في منغوليا

خلافاً لما يتردد ، لم تمدنا المصادر والمراجع التي بين أيـدينا بمعلومـات وافية عن أصل المغول، ولا عن تاريخهم المبكر، قبل قيام دولتهم على يد جنكيز خان. فكل ما نعرفه عن هذه الجماعـات البدويـة أنها كـانت تعيش ، في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميـلادي ، حياة رعـوية ، غيـر مستقرة ، في سهـوب منغـوليـا التي تؤلف جـزءاً من هضبـة آسيـا الـوسـطى والشرقية ، إلى الشمال من صحراء جوبي ، بين بحيرة بيكال غرباً وجبال خنجان على حدود منشوريا شـرقاً ، حيث تشكل الجبال المحيطة بها حاجزاً منيعاً بين الأقاليم الصينية وسيبيريا .

انقسمت الأمة المغولية إلى قبائل عدة ، كان أشهرها تلك التي قاتلت تحت راية جنكيز خان ، وساهمت في تأسيس إمبراطوريته الشاسعة ، وهذه القبائل هي :

ـ قيات[1] (Qiyat) : قبيلة جنكيز خان المغولية الوثنية التي كانت تقيم في الشمال الشرقي لمنغوليا الحالية ، ما بين نهري أونون (Onon) وكيرولين (Kéroulen). استطاعت هذه القبيلة ، رغم قلة عدد أفرادها أن تتبوأ مكاناً مرموقاً بين القبائل المغولية أيام جنكيز خان .

ـ الأويرات ـ الأويراد (Oïrotes) : كانت تقيم غربي بحيرة بيكال على مقربة من منابع نهر ينسي ، أو الأنهار الثمانية[2] .

ـ النيمان[3] (Naïmants) : قبائل تركية سكنت أقاصي الغرب بين أعالي نهري أرتيش وأورخون ، بالقرب من سفوح جبال ألطاي ، وكانت أكثر القبائل المغولية حضارة .

ـ الكرايت (Keraïtes) : قبائل من أصول تركية استوطنت الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي ، وجنوبي بحيرة بيكال ، حتى سور الصين العظيم[4] .

---

(١) Grousset, L'Empire des Steppes, P. 248.

(٢) بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، ص ١٥٢ .

(٣) وتعني ثمانية بالمغولية ؛ Grousset, OP. Cit, P. 244.

(٤) Lemercier - Quelquejay, La paix Mongole, P. 17.

ـ المركيت (Merkites) : قبائـل مغوليـة أقامت في المنطقة الـواقعة شمـال بلاد الكـرايت ، على المجرى الأسفل لنهر سلنجا ، جنوبي بحيرة بيكال[١] .

ـ التتار (Tatars) : طائفة كبيرة من القبائل ، أحرزت شهرة واسعة ، حتى أن العديد من المؤرخين أطلقوا اسم التتـار على كافـة القبائـل المغوليـة ، فشهر المغـول أو « مغل » باسمهم الأصلي إضافة إلى لقب التتار[٢] .

كان التتار يقطنون في المنـطقة الممتـدة من جنوب بحيرة بيكال حتى نهر كيرولين ، ويحـدها شمـالاً نهرا أورخـون وسلنجا ، ومملكـة القرغيـز ، وشرقـاً الصين الشمالية وممالك الأويغور غرباً ، وإقليم التيبت جنوباً .

أما المعتقدات الدينية لهذه القبائل فتراوحت ما بين الوثنية والأديان السماوية ، وبخاصة المسيحية (المذهب النسطوري) والإسلام[٣] .

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، المجلد الأول ، ص ٧٣.
Lemercier - Quelquejay, Op. Cit, P. 17.

(٢) رشيد الدين ، المصـدر نفسه ، م ١ ، ص ٦١ ؛ رمـزي ، تلفيق الأخبـار وتلقيح الآثـار ، المجلد الأول ، ص ٣٣٥ - ٣٤٥ .

(٣) عن المعتقدات الدينية للمغول في بداية القرن الثالث عشر ، راجع : =

جاورت القبائل المغولية الست طائفة من قبائل الترك تعيش حياة أشبه بحياة المغول ، نذكر منها :

- الأتراك الأويغوريون[١] (Uyghurs) : سكنوا في الشمال الشرقي لتركستان الحالية . عرف عنهم أبجديتهم ، وانتشار كتابتهم بين شعوب آسيا التركية ، حتى بعد سقوط دولتهم على يد الأوغوز .

- الأتراك القراخطائيون (Kara-Khitaïs) : كانت لهم دولة هامة يحدها من الغرب الدولة الخوارزمية ، ومن الشرق مواطن المغول . كان نهر سيحون بمثابة الحد الفاصل بين مملكتهم وأقاليم الدولة الخوارزمية[٢] .

عاصرت القبائل المغولية ، الآنفة الذكر ، امبراطوريات كبيرة تمثلت بإمبراطورية سونج الوطنية (Soong) في جنوب الصين (جنوب نهر واي - هو Houai - Ho) ، وعاصمتها هونج - شاو ، ومملكة الكين أو المملكة الذهبية (King) في الصين الشمالية

= Lemercier - quelquejay, la paix, op, cit., P. 17 - 18.

(١) أويغور : كلمة تركية تعني الارتباط والتعاون . رشيد الدين ، المصدر السابق ١ ص ٣٣ .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٢ .

حتى نهـر واي ـ هو (منشـوريا) ، وعـاصمتها بكين ، ومملكة تانغوت (Tangut) أو سي ـ هيا (Si - Hia) في شمال غربي الصين ، والخلافة العبـاسية في بغـداد ، ودولة الأيوبيين في مصر والشام ، وسلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، إضافة إلى دويلات الإسماعيلية المنتشرة هنا وهناك ، في بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، وباكستان الحالية ، وعاصمتها ألموت[١] .

---

(١) غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ترجمة خالـد عيسى ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

Lemercier - quelquejay, la paix, P. 20 - 21.

ثانياً: توحيد القبائل المغولية بزعامة جنكيز خان

كانت القبائل المغولية تعيش حالة تنازع وصراع فيما بينها ، حتى ظهر فيهم قائد يدعى «تموجين»[1]، فعمل على توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ، تمهيداً لإقامة امبراطورية مترامية الأطراف .

ففي سن العاشرة ، وبعد وفاة والده « يسوكاي » ، أصبح تموجين زعيم قيات، إحدى القبائل المَغولية الخمس المتحالفة ، التي تتقاسم النفوذ في سهوب منغوليا .

سعى تموجين ، منذ عام ٥٩٢ هـ/ ١١٩٧ م ، إلى

---

(١) هو تموجين بن يسوكاي ، زعيم قيات المغولية . ولد في منغوليا حوالى عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٥ م ، أما جنكيز خان فهو لقبه ، ويعني امبراطور العالم .
رمزي ، تلفيق الأخبار ، م ١ ، ص ٣٤٤ .
Grousset, Empire, P. 254 - 259.

توحيد المغول، فأخضع لنفوذه تباعاً قبائل الكرايت، والنيمان والمركيت، والأويرات . ولم تدخل سنة ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٦ م، حتى كان تموجين قد بسط سيطرته على منطقة شاسعة، من إقليم منغوليا، تمتد حتى صحراء جوبي، حيث مضارب معظم قبائل التتار، ثم أخضع سائر جيرانه من القبائل الأخرى، واتخذ من حصن قراقورم مقراً له، ووضع نظاماً للقبائل المنضوية تحت لوائه، يسمى الياسا (Yasa) وهو عبارة عن دستور حربي - اجتماعي صارم أساسه الطاعة العمياء للحكام[١] .

وفي اجتماع عام (Khurultay)، عقد في ربيع ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م، أخبر تموجين رؤساء القبائل الخاضعة لنفوذه أن السماء أضفت عليه اسماً جديداً هو « جنكيز خان »، أي امبراطور البشر، أو أعظم حكام الأرض[٢] .

---

(١) عن دستور الياسا، راجع : الجويني تاريخ فاتح العالم، ترجمة محمد التنوخي، م ١، ص ٦١ - ٦٨ .

(٢) شبولر، العالم الإسلامي، ص ٦١ - ٦٨ ؛
Lemercier - quelquejay, la paix, P. 18 - 19.

ثالثاً: بناء الامبراطورية

لم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية ، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك ، فكان عليه لتحقيق مشروعه الطموح ، أن يتحرك في جميع الاتجاهات ، وأن يواجه خصوماً متعددي الجنسيات والثقافات .

لذا، وتسهيلاً للبحث ، رأيت أن أقسم جبهات القتال ، وفق سير العمليات العسكرية المتشعبة والشديدة التعقيد ، وذلك حسب ما يلي :

I ـ الجبهة الصينية

١ ـ العمليات العسكرية ضد بلاد الصين الشمالية :

(١) ـ مملكة التانغوت :

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت ، أو مملكة سي ـ هيا ، في التيبت ، وهي أضعف الممالك الثلاث

التي تقاسمت النفوذ في الصين ؛ فباستيلائه على هذه المملكة يستطيع أن يتحكم بطريق الصين إلى تركستان ، ويحاصر من جهة الغرب مملكة كين ، العدو التقليدي للمغول .

قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت ، في السنوات ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥ م ، و٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م ، و٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م ، فاكتسح جميع أراضيها ، ولكنه لم يفلح في دخول عاصمتها ننج - هسيا التي حاصرها طويلاً، ولم يفك الحصار عنها إلاّ بعد أن وافق عاهلها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه عام ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م ، ودفع الجزية لجنكيز خان[1] . وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت ، أي إقليم كانسو الصيني الحالي ، وسهوب أوردوس وألدشان التي كانت تعتبر منطقة حدودية مع الصين . فكان على القائد المغولي ، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطىء قدم في أراضي الصين أن يهاجم مملكة كين التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول[2] .

---

(١) غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ٢٣٨ ؛
Grousset, Empire, P. 286.

(٢) Grousset, Ibid., P. 286.

(٢) ـ مملكة كين (مملكة الذهب) :

واجهت جنكيز خان ، في هجومه على مملكة كين القوية ، صعوبات لم يصادفها خلال غزوه لمملكة التانغوت ، وتتمثل تلك الصعوبات بالتحصينات المنيعة ، وحروب الحصار التي لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد ، إضافة إلى وجود سور الصين العظيم ، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب ، مما شكل خط دفاع مستمر لحماية مملكة الذهب[١] .

توجهت أنظار جنكيز خان أولاً إلى التحالف مع قبائل الأونغوت المقيمة شمال سور الصين (في منغوليا الداخلية الحالية) ، ونجح في إقامة حلف مع ملكها ، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يعتبر ، نظراً لموقع مملكته الإستراتيجي ، والمعاهدات المعقودة بينه وبين ملك كين ، حارساً للحدود الصينية ، ومراقباً أميناً فيما وراء السور العظيم . ولهذا ، فعندما حالف جنكيز خان مملكة الأونغوت ، بدا وكأنه فكك وسائل دفاع مملكة كين ، دون أدنى جهد

---

(١) غروسيه ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

ممكن ، وأوصل حدود امبراطوريته إلى الخطوط الأمامية من مواقع الخصوم(١) .

وفي عام ٦٠٧ هـ/ ١٢١١ م ، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية ، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين . وبطبيعة الحال لم يجد جنكيز خان صعوبات تذكر في اختراق دفاعات الأتراك الأونغوت المتحالفة معه (كما أسلفنا) ، ووصل جيشه إلى شمال الصين ، وخرب البلاد التي اجتاحها ، من دون أن ينجح في الاستيلاء على مدنها الرئيسية ؛ فقد كان ينقصه المهارات الهندسية لذلك ، كما وقف جيشه طويلاً وهو ينتظر أمام قلاع سور الصين .

ومضى عاما ٦٠٨ هـ و٦٠٩ هـ/ ١٢١١ م و١٢١٢ م ، ولم يستول جنكيز خان سوى على مراكز قليلة الأهمية ، لكون تلك البلاد صعبة التضاريس ، تتخللها سلاسل جبلية متداخلة ، ويمر سور الصين خلالها ، من خليج بتشيلي إلى النهر الأصفر ، ثم إلى الشمال من بكين وتاتونج ، عند شمال شان سي ، فاكتفى القائد المغولي بإحراز بعض الانتصارات غير

---

(١) غروسيه ، جنكيز خان قاهر العالم ، ص ٢٤٠ .

الحاسمة ، كما حصل عام ٦٠٧ هـ/ شباط ـ آذار ١٢١١ م ، في معركة جبل يي ـ هو الواقع بين بكين وكالجان .

وتحين جنكيز خان الفرصة السانحة ، في ربيع ٦٠٨ هـ/ ١٢١٢ م ، عندما ثار أحد أمراء الخطاي (١) الخاضعين لسيادة كين ، وأعلن تأييده للفاتح المغولي ، فأسرع هذا الأخير إلى دعم الأمير الثائر ، وأرسل أحد أعوانه القائد « جيبي » إلى إقليم لياو ـ يانج (جنوب منشوريا) ، لكن القوة المغولية انهزمت أمام أسوار مدينة لياو ـ يانج ، فتراجع جيبي إلى منطقة مجاورة ليعيد تنظيم قواته ، ثم باغت المدينة واحتلها ، وأعلن يي ـ لو ـ ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية (٢) .

وفي عام ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م ، توجه جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية ، وكان هدفه السيطرة على طريق

---

(١) الخطاي : قبيلة من أصل مغولي ، سيطرت على بكين مدة قرنين من الزمن قبل أن تخضع لملوك كين ، وقد تحينت هذه القبائل فرصة قدوم أنسبائهم المغول للانتقام من ملوك كين .
(٢) غروسيه ، جنكيز خان ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ؛
Grousset, Empire, P. 288.

كالجان ـ بكين الإستراتيجي ؛ فاستولى على هسوان ـ هوا ، وهي أول مدينة حصينة على هذا الطريق ، وسقطت بيده ، تباعاً ، باور ـ آن ، وهواي ـ لاي ، ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان (نان ـ كو) المظلم ، جنوب غربي هواي ـ لاي ، الذي تتحكم فيه حصون منيعة تسيطر على المنطقة التي ينحدر منها السور العظيم نحو بكين . ثم وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان ـ كنج ، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية . وفي المنطقة الشمالية الشرقية استولى على قلعة كويبي ـ كو التي تتحكم بالممر الرئيسي ما بين جيهول (شانغ ـ تي) وبكين . وفي الشمال الغربي للبلاد ، استولت قواته على تا ـ تونج المعقل الهام الذي يقع بين خطي سور الصين ، ويسيطر على إقليم شان ـ سي .

انتهز جنكيز خان حالة الفوضى الناتجة عن قيام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب وي ـ شاو ، في ربيع الآخر ٦١٠ هـ/ آب ـ أيلول ١٢١٣ م ، وقام بهجوم واسع على وسط مملكة كين من ثلاثة محاور :

ـ قاد بنفسه الجيش الأوسط ومعه ابنه تولوي (تولي) ، وزحف من السهل العظيم (سهل الصين

الشرقي) إلى وسط الصين ، متجنباً الهجوم على بكين ، بعد أن وضع قوات قبالتها ، ثم انعطف إلى الجنوب ، فنهب المدن تباعاً ، بدءاً من باو ـ تونج جنوباً حتى بكين شمالاً ، ومن بكين قطع جنكيز خان مسافة جاوزت ٣٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتوقف إلّا عند وصوله إلى هو ـ باي ، على النهر الأصفر ، حيث لم تستطع خيوله عبور النهر لغزارة مياهه وسرعة جريانه .

وبعد ذلك ، توجه جنكيز خان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية ، ووصل إلى سهل شانتونج الخصيب ، واحتل مدينة تسي ـ تان ، ثم انتقل إلى مرتفعات تاي ـ شان ، وسار نحو الشرق ، وسيطر على مدينة لان ـ شان ، على الجانب الأقصى لحدود إقليم شانتونج ، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى ، باستثناء بعض الحصون المنيعة التي عجز عن اقتحامها ، ثم رجع إلى سور الصين العظيم بعد أن نهب سهل الصين الشرقي .

ـ أما الجناح الأيمن من الجيش ، الذي قاده جوجي وجغتاي وأوكتاي ، أولاد جنكيز خان، فسار إلى القطاع الغربي من هو ـ باي عن طريق بوا ـ تنج وشانتو، واقترب من هواي ـ كنج في مقاطعة هانون ، شمال النهر الأصفر ، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي ـ هانج ،

وصعد بعدها إلى إقليم شان ـ سي ، ثم توجه عبر حوض نهر « فن » الذي يقسم الإقليم المذكور إلى قسمين في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب ، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتي النهر (فن) ، وفي جواره ، وهي مدن : باي ـ يانج ، فن ـ تشي ، وهسن ـ تشو . كما استولى على مدينة تاي ـ يوان ، حاضرة إقليم شان ـ سي ، ثم رجع إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي ـ تشو وتاتونج .

ـ أما الجيش الثالث الذي قاده قاسار أخو جنكيز خان ، فسار بمحاذاة بكين متبعاً الطريق الساحلية شمالاً ، وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول (شانغ تي) ، ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا ، في إقليم نهري نوتي وسنجاري وصولاً إلى نهر آمور .

وفي عام ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م ، انتهز جنكيز خان فرصة مبادرة إمبراطور الصين إلى عرض الصلح ، على أن يضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين ، سواء كانت داخل سور الصين أم خارجه ؛ فأعلن جنكيز خان موافقته على طلب الامبراطور . وما أن اجتاز القائد المغولي سور الصين ، في طريق عودته إلى

منغـوليا ، من ممـر تشو ـ يـونـج ـ كـوان ، حتى عـدل الإمبـراطـور عن فكـرة الصلح ، وشـرع في تحصين قلاعه وحصونـه ، ونقـل عـاصمـة ملكـه إلى مـدينـة كاي ـ فونج ، في جنوبي البلاد ، لتكون أقرب إلى ساحة القتـال تـاركـاً بكين في عهـدة ولـده . فمـا كـان من جنكيـز خان إلاّ أن استـدار بجيوشـه وعاد مسـرعـاً إلى الصين ، واشتبك مع الجيش الصيني في معركة فاصلة سقطت على أثرها بكين في أيدي المغول عام ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م[١] .

II ـ الجبهـة الغربيـة أو المـواجهـة مـع الـدولـة الخوارزمية

بعد سنتين من انتهاء الحمـلات ضد بـلاد الصين ، وجه جنكيز خان اهتمامه ناحيـة الغرب ، وتحـديداً إلى آسيا الوسطى ، التي تسيطر عليهـا الدولـة الخوارزميـة الفتية ، (تركستان ، أفغانستان ، وإيران) ، بزعامة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه .

---

(١) Grousset, Empire, P. 288 - 290; lemercier - Quelque-jay, La paix, P. 23.

كان الاحتكاك بين المغول والخوارزمشاهية أمراً محتوماً ، ولا سيما بعد مجاورة جنكيز خان لأملاك الدولة الخوارزمية ، إثر قضائه على خصمه اللدود كوجلك خان[١] . وحصل ما يمكن اعتباره سبباً مباشراً لإشعال فتيل الحرب بين الطرفين ، عندما وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيز خان إلى مدينة أوترار ، الواقعة على نهر سيحون ، فارتاب منهم إينال خان ، ويعرف أيضاً باسم غاير خان[٢] ، وهو ابن خال السلطان الخوارزمي (وقيل خال السلطان)[٣] ، وأمر بالقبض عليهم وقتلهم. عندها أوفد القائد المغولي إلى السلطان محمد خوارزمشاه سفارة من ثلاثة رجال يحملون رسالة تتضمن طلباً بتسليم حاكم أوترار للمغول ليلقى جزاءه . فأمر محمد خوارزمشاه بقتل أحد الرسل (وقيل قتل الرسل الثلاثة) ، واضعاً بذلك حداً لأية إمكانية للتفاهم

---

(١) حول صراع جنكيز خان مع كوجلك ، راجع : الجويني ، تاريخ فاتح العالم « جهانكشاي » ، ج ١ ، ص ٨٦ - ٩٠ .

(٢) ويقال له أيضاً إينال حق . الجويني ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٣) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٥ ؛ الجويني ، المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

مع جنكيز خان ، مما جعل المواجهة بين الطرفين أمراً محتوماً(١) .

١ - هجوم المغول على إقليم ما وراء النهر (نهر سيحون) :

في رجب ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م ، وصل جنكيز خان إلى نهر سيحون ، على مقربة من مدينة أوترار ، وقسَّم قواته إلى أربعة مجموعات ؛ عهد إلى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جزء من إقليم ما وراء النهر :

- المجموعة الأولى : قادها ولدا جنكيز خان جغتاي وأوكتاي « أوكداي » ، ويدعمهما قوة من الأيغوريين ، ومهمة هذه المجموعة الاستيلاء على مدينة أوترار .

- المجموعة الثانية : بقيادة جوجي ، الابن الأكبر لجنكيز خان ، ومهمتها فتح البلاد الواقعة على ساحل نهر سيحون ، الذي يؤلف مجراه الحدود الشمالية للدولة الخوارزمية ، وخصوصاً مدينة « جند » الحصينة .

- المجموعة الثالثة : بإمرة ثلاثة من كبار القواد

---

(١) الجويني ، المصدر السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ ؛ النسوي ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

المغـــول ، وكـانت مهمتهـــا الاستيـــلاء على مـــدينتي « بناكت » و « خجند » .

ـ المجموعة الرابعة : شكلت هذه المجموعة القسم الأعظم من الجيش المغولي ، بقيادة جنكيز خـان نفسه ومعه ابنه الأصغر تولوي (تولي) ، وكانت وجهتها وسط إقليم ما وراء النهر ، وبخاصة مدينة « بخارى » ، كما كـان على هذه المجمـوعـة التصـدي لقـوات السلطان الخوارزمي والحيلولة دون وصوله إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق[1] .

أما السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، فلم يكن يدري بمخطط خصمه المغولي ، ولم تكن لديه خطة محكمة للتصدي لهجماته ، لذلك أمر القسم الأكبـر من جيشه بالتمركز في القلاع المنتشرة على الحدود الشمـالية من بلاده ، ووزع باقي جيشه بين حاميـات منطقـة ما وراء النهر ، مثل « بخارى » و « سمرقند » وغيرهما ، فكانت نتيجة هذا التوزيع إضعافاً لقـدرة الجيش الخوارزمي ، رغم تفوقه العددي على جيش المغول ، ممـا أدى إلى

---

(١) الجويني المصدر السابق ، ص ١٠١ ؛ فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ١١٢ ؛

La Paix, P. 24.

سقوط المدن الخوارزمية الواحدة تلو الأخرى .

(١) - سقوط أوترار (٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م) :

كانت أوترار ، الواقعة على الضفة الشمالية لنهر سيحون ، أول مدينة قصدها المغول ، باعتبارها مفتاح إقليم ما وراء النهر ، فصمدت أوترار في وجه الغزاة ما يقارب خمسة أشهر ، وعند سقوطها اعتصم حاكمها إينال شهراً آخر في قلعتها قبل أن يستسلم للمغول ليلقى مصيره المحتوم على أيديهم . وبذلك سيطر المغول على أوترار ، وأحدثوا فيها مجزرة رهيبة[١] .

(٢) - سقوط جند (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) :

تقدمت المجموعة الثانية من الجيش المغولي ، وسارت بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر سيحون ، وتمركزت على مقربة من سغناق (مدينة تركستان الحالية) ، ثم اقتحمها جوجي ، ابن جنكيز خان ، بعد أن رفض أهلها الاستسلام ، وقتل جميع سكانها . توجه جوجي بعد ذلك إلى جند ، (بيروفسك الحالية) ، واستولى عليها

---

(١) الجويني ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٣ ؛ عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية ، ص ٩٥ .

بعد مقاومة ضعيفة ، ثم عبر نهر سيحون إلى إقليم خوارزم[١] .

(٣) - الاستيلاء على بناكت وخجنده (خجند) :

سارت المجموعة الثالثة من الجيش إلى مدينة « بناكت » (فناكت) ، واستولت عليها بعد حصار دام ثلاثة أيام ثم توجهت جنوباً إلى خجنده وأخضعتها[٢] .

(٤) - الاستيلاء على بخارى (٦١٦ هـ/ ١٢٢٠ م) :

تقدم جنكيز خان وابنه تولوي (تولي) من أوترار باتجاه وادي زرفشان في وسط إقليم ما وراء النهر قاصداً مدينة بخارى ، واستولى على المدن التي صادفها في طريقه ، ثم حاصر بخارى ، وهاجمها مدة ثلاثة أيام ، فأعلن سكانها الاستسلام ، وفُتحت أبواب المدينة أمام المغول ، فدخلوها في ذو الحجة ٦١٦ هـ/ شباط ١٢٢٠ م ، وعاثوا فيها تدميراً وفساداً ، ثم سقطت قلعتها بعد أن صمدت اثني عشر يوماً[٣] .

---

(١) الجويني ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ؛ عبد السلام فهمي ، المرجع السابق ص ٩٥ - ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ - ١١٠ ؛ المرجع نفسه ص ٦٠ .

(٣) الجويني ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٩ ؛ ابن عربشاه ، فاكهة الخلفاء ، ص ٣٦٠ .

(٥) ـ استخلاص سمرقند (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) :

زحف جنكيز خان إلى سمرقند ، حاضرة إقليم ما وراء النهر ، عبر وادي زرفشان ، ولم يلق مقاومة تذكر سوى في موقعين اثنين : قلعة بوسي وقلعة ساري بول . وبعد الاستيلاء على هاتين القلعتين ، تقدم جنكيز خان إلى سمرقند وحاصرها ، فاضطرت حاميتها للاستسلام بعد أن لجأ العديد من عناصرها ، من ذوي الأصول التركية ، إلى المغول ، وفتحت أبواب المدينة أمام جنكيز خان ، فدخلها دخول الظافرين ، وأعمل السيف في رقاب أهلها ، كما استولى على قلعة سمرقند (قهندز) عنوة ، وقتل من كان فيها . وقبل أن يغادر المدينة فرض جنكيز خان على أهلها جزية كبيرة ، إضافة إلى ثلاثين ألفاً من الحرفيين المهرة الذين صحبهم معه إلى عاصمته قراقورم [١] .

وبسقوط سمرقند ، استكمل جنكيز خان سيطرته على كامل إقليم ما وراء النهر الذي كان بمثابة خط الدفاع الأول للدولة الخوارزمية ، فانعكس ذلك سلباً على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، م ٩ ، ص ٣٣٣ ؛ الجويني، المصدر السابق ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ؛ ابن العبري، تاريخ الزمان ، ص ٢٦٤ .

الخطط الدفاعية لعلاء الدين خوارزمشاه ، وتحطمت معنويات جنده ، مما سهل على المغول الاستيلاء على بقية الأقاليم الخوارزمية .

٢ ـ اخضاع إقليم خوارزم :

وفي ربيع الأول ٦١٧ هـ/ أيار ١٢٢٠ م ، اجتاز الجيش المغولي نهر جيحون ، واستولى على مدينة « جورجانية » حاضرة إقليم خوارزم ، (وهي مدينة أورجنج الحالية) أو « كركانج » ، الواقعة قرب دلتا نهر جيحون على بحر آرال ، وأحدث فيها المغول مجزرة كبيرة ، وأحرقوها ، في عام ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م(٢) . ثم تابعوا إخضاعهم لمدن الإقليم ، وفي أقل من أربعة أشهر كانت الدولة الخوارزمية قد دمرت تماماً .

أما السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، فسارع إلى الهرب لينجو بنفسه ، بعد أن ترك جيشه هائماً على وجهه ، فتعقبه المغول ، فالتجأ إلى جزيرة آبسكون (باب سكون) في بحر قزوين ، وتوفي فيها في شوّال

---

(١) وتدعى أيضاً « أوركنج » كما جاء عند الجويني ، م ٩ ، ص ١٣١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣١ ـ ١٣٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

٦١٧ هـ/ ١٢٢١ م ، بعد أن عَهد بالبيعة لولده جلال الدين منكبرتي[١] .

٣ ـ الاستيلاء على إقليم خراسان :

وفي ربيع ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ، عبر جنكيز خان نهر جيحون ، قرب بلخ ، بعد أن استولى على نخشب (نسف) وترمذ[٢] .

وكانت الخطوة الأولى تخريب خراسان التي سبق أن تعرضت، في السنة السابقة ، لغزو مفاجىء على يد « جيبي » ، و« سوبوتاي » المغوليين ، حينما كانا يطاردان السلطان محمد خوارزمشاه ؛ فاستوليا على بعض المدن الخراسانية مثل نيسابور ، والري ، وزنجان ، وطوس ، ثم عادا بعد أن تركا المدن التي احتلاها بيد عسكريين مغول[٣] . ولكن الخوارزميين نجحوا ، آنذاك ، في استرداد طوس ، وأبادوا الجيش المغولي المتمركز فيها ، فتحركت القوات المغولية ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٣٣٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ ، ص ٢٦٥ ؛ الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٩٥٠ .

(٢) الجويني ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٣) Grousset, Empire, P. 306.

بقيادة تولوي ، إلى خراسان ، في خريف ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م ، واحتلت مدينة نسا ، بعد حصار دام ١٥ يوماً ، وقتلوا معظم سكانها ، وأحدثوا فيها دماراً هائلاً .

انتقل المغول ، إثر سقوط نسا ، إلى مرو ، حاضرة إقليم خراسان ، وهدموها ، في صفر ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ، واحتلوا نيسابور ودمروها . ثم توجه تولوي جنوبي سلسلة جبال « باروباميسوس » قاصداً مدينة هراة ، وحاصرها مدة ثمانية أيام ، سقطت بعدها المدينة بيده . وبعد ذلك تابع مسيره لملاقاة والده عند مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون(١) .

وبسقوط هراة ، يكون تولوي قد استولى على جميع بلاد خراسان ، ابتداء من حدود « مرو الروذ » حتى « بيهق » (سبزوار الحالية) ، ومن نسا وأبيورد حتى هراة .

٤ ـ اكتساح إقليم غزنة :

بعد أن نجح جنكيز خان في الاستيلاء على بلخ والطاقان ، انعطف ، عام ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ، جنوباً

---

(١) الجويني ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ ؛ فؤاد الصياد ، المغول ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢ .

وعبر الحاجز الجبلي الممتد من جبال هندوكوش إلى جبال باروبانيساد . وفي وسط هذه السلسلة الجبلية تتصل جبال باروميسوس بجبال هندوكوش ، وفي جنوبها تتصل (السلسلة الجبلية) بسلسلة جبال كوه ـ آي ـ بابا ، حيث تنتصب مدينة باميان على هضبة شار ـ آي ـ جولجولا .

حاصر جنكيز خان باميان ، فقاتله أهلها قتالاً ضارياً ، إلى أن سقطت المدينة بيده، فقتل كل من كان فيها حتى « الدواب والأجنة »(١) .

وفي هذه الأثناء ، خلف جلال الدين منكبرتي والده المتوفى ، علاء الدين خوارزمشاه ، في حكم الدولة الخوارزمية ، ولجأ إلى غزنة الواقعة جنوب شرقي باميان ، وعلى ٩٠ ميلاً منها ، في منطقة « علزاي » التي تحيط بها سلسلة جبلية شاهقة تجري باتجاه خط الأفق إلى سلسلة كوه ـ آي ـ بابا .

وفي غزنة ، جمع جلال الدين جيشاً من المرتزقة

---

(١) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٣٢ - ١٣٤ ؛ عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

الأتراك والأفغان ، وسحق فرقة مغولية كانت تحاصر قلعة قريبة من غزنة ، وذلك في ربيع ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ، ثم تابع انتصاره على المغول في معركة شرسة قرب مدينة « بيروان »[١] ، عند منابع نهر لوجار جنوب كابل .

ولتغطية هزائمه أمام جلال الدين ، توجه جنكيز خان نحو غزنة ، التي غادرها جلال الدين ، قبيل قدوم المغول ، إلى الحدود الهندية الأفغانية قاصداً بلاد البنجاب ، فأدركه جنكيز خان على ضفاف نهر السند ، في شوّال ٦١٨ هـ/ تشرين الثاني ١٢٢١ م ، ودارت بين الطرفين معركة حاسمة (معركة نهر السند) ، أسفرت عن هزيمة جلال الدين الذي نجا بنفسه ، وانتقل إلى الهند[٢] ، حيث جرت عدة وقائع بينه وبين أهالي تلك البلاد انتصر فيها جلال الدين ، واستطاع أن يكوّن جيشاً كبيراً ، عاد به ، بعد حين ، إلى إيران لاسترداد عرشه السليب ، ومواجهة المغول من جديد .

---

(١) وهي ليست المدينة الحالية الواقعة في وادي باندشير إلى الشمال من كابول .
غروسيه . جنكيز خان . ص ٣١٣ وعن أخبار وقعة بيروان ، راجع : النسوي . المصدر نفسه . ص ١٣٤

(٢) Lemercier - quelquejay. La paix. P. 25.

وبعد أن أنجز جنكيز خان مهمته في تدمير الدولة الخوارزمية ، قرر العودة إلى منغوليا ، بعد أن ترامت إلى أسماعه أخبار الاضطرابات التي قامت ضده في شمال الصين والتيبت ، فسلك طريق هراة وانتقل إلى أطراف « بيشاور » وولاية البنجاب . وبعد أن أمضى الصيف في باميان ، توجه الزعيم المغولي إلى « كابل » ومنها إلى حدود نهر جيحون ، ثم عبر نهر جيحون إلى سمرقند عام ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م ، ووصل إلى حدود الدولة الخوارزمية ، واستراح في صيف عام ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م ، في صحراء قلان باشي (في القطاع الشرقي من منطقة سيحون الحالية إلى الشمال من جبال الإسكندر) ، ثم قضى صيف العام التالي (٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م) في المنطقة بنهر ارتيش ومنها انتقل إلى عاصمته قراقورم في منغوليا التي وصلها في ربيع ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م ، بعد أن غاب عن بلاده حوالى ستة أعوام .

III ـ غزو إيران والقوقاز وبلاد الروس

إثر الانسحابات المتتالية لعلاء الدين محمد خوارزمشاه ، فتحت طريق إيران الشمالية أمام القائدين المغوليين « جيبي » و« سوبوتاي » ، فوصلا إلى إقليم

أذربيجان ، ومنه انتقلا لقضاء شتاء ٦١٨ هـ/ ١٢٢٠ - ١٢٢١ م ، قرب مصبي نهري أراكس وكورا . ثم تحركا من أعالي وادي كورا باتجاه جورجيا واحتلاها ، إثر معركة سهل خوتان (٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) الذي يصل نهر بيردوج بنهر كورا ، جنوب تفليس[١] ، وعادا ، بعد ذلك ، إلى بلاد إيران ، وإلى إقليم أذربيجان بالذات ، وهاجما مراغة وفتحاها في صفر ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م ، وذبحا أهلها ، وكذلك فعلا بمدينة همذان[٢] .

وفي خريف العام نفسه ، عاد القائدان المغوليان إلى جورجيا مروراً بأردبيل ، وهزما الجورجيين ثانية ، ثم انتقلا إلى القطاع الأوروبي من البلاد ، مروراً بشروان فممر دربند ، البوابة الرئيسية بين سلاسل جبال داغستان ، وهي بمثابة الحاجز القوقازي باتجاه الخزر ، ثم انتقلا إلى السهوب التي يرويها نهرا ترك وكوما وروافدهما ، التي تنساب شمالاً من سهوب روسيا الرمادية في الشمال الغربي ، وتمتد على طول الساحل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٩ ، ص ٣٣٩ ؛
Grousset, Empire, P. 306 - 307.

(٢) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ؛
Grousset, Ibid, P.307.

الشمـالي للبحر الأسـود ، من أسفل جبـال القـوقـاز ، وحوض كوبان حتى مصب نهر الدانوب(١) .

وعند خروج المغول من ممرات القـوقاز الجبليـة ، انقضت عليهم القـوى القوقـازية من الشـركس والـلآن والآس . . . المقيمـة في سهوب نهـري ترك وكـومـا ، إضافة إلى قبائل القفجاق أو الكومان الأتراك ، وانتهى الأمر بانتصار المغول .

وبـذلك ، بـدت الأراضي الروسيـة مكشـوفـة أمـام الغزاة ، فتحرك الجيش الروسي إلى جنوب نهر الدنيبر، مقـابل ألكسندروفسك الحـاليـة ، وكـانت المـواجهـة العسكرية الأولى لصالح الروس ، فتراجع المغول أمام الجيش الروسي مدة تسعة أيام متتالية (وقيـل إنه كـان تـراجعـاً وهميـاً لاستـدراج الـروس إلى فـخ محكم الإعـداد) . وفجـأة ، وعنـد نهـر « كـالكـا » ، أو « كالاك » ، وقيل « كالميوس » ، وهو نهر ساحلي صغير يصب في بحر آزوف ، قرب ماريوبـول ، قام المغـول بهجوم معاكس ضـد تحالف أمـراء الروس ، في ربيـع

---

(١) غروسيه ، جنكيز خان ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ؛
Lemercier - quelquejay, la paix, P. 25 - 26.

الثاني ٦٢٠ هـ/ آيار ١٢٢٣ م ، وسحقوا خصومهم (معركة نهر كالكا) ، ثم قاموا بهدم بعض المدن الروسية على الحدود الروسية ـ القفجاقية ، وتوجهوا إلى بلاد القرم[(١)] .

توجه القائدان جيبي وسوبوتاي باتجاه الشمال الشرقي لمهاجمة قبائل « بلغار كاما » التي كانت تسكن في منطقة الغابات (منطقة قازان) الحالية ، قرب نقطة اتصال كاما بالفولغا الأعلى ، وذبحا هذه القبائل . ثم انتقلا إلى آسيا ، عن طريق نهر الفولغا السفلي وجبال الأورال ، وأخضعا المنطقة الواقعة شرقي نهر قانجلي ، ثم انحدرا إلى ضفاف نهر إيميل ، ومنه اتبعا الطريق الموصلة إلى منغوليا[(٢)]

IV ـ حملة جنكيز خان الأخيرة

ضد مملكة التانغوت

وفي خريف عام ١٢٢٦ م ، قاد جنكيز خان آخر

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ، ٣٣

Lemercier - quelquejay, op. cit., P. 26.

(٢) غروسيه ، جنكيز خان ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ ؛

Ibid., P. 26.

حملاته ضد مملكة التانغوت ، شمال التيبت، التي لم تكن خضعت تماماً لسلطانه . وفي ربيع العام التالي (١٢٢٧ م) ، حاصر العاصمة ننج ـ هسيا مدة طويلة ، إلى أن سقطت المدينة ، فدخلها المغول ، وقتلوا أهلها وخربوها[١] .

وفي هذه الأثناء مرض جنكيز خان ، وتوفي في النصف الأول من رمضان ٦٢٤ هـ/ آب ١٢٢٧ م، بعد أن استدعى أولاده ، وأوصاهم أن يخلفه ابنه الثالث أوكتاي في الحكم . وبعدوفاة جنكيز خان حمل جثمانه إلى منغوليا ، ودفن في المنطقة التي يخرج منها نهرا أونون وكيرولين[٢] .

٧ ـ تقسيم امبراطورية جنكيز خان وانتخاب أوكتاي خاقاناً

قسم جنكيز خان امبراطوريته الشاسعة بين أبنائه ، وهو على قيد الحياة ، وطبقاً للقانون المغولي يعطي الأب ، قبل وفاته ، قسماً من أملاكه لأبنائه الكبار ،

---

(١) Lemercier - quelquejay, La paix, P. 26; Grousset, Empire, P. 309.

(٢) Grousset, Ibid, P. 309.

بحسب سنهم ، ويترك الجزء الأهم منها لأصغرهم سناً .
وقد جرى تقسيم الإمبراطورية على النحو التالي :

- نال جوجي كبير أبناء جنكيز خان ، المنطقة الواقعة بين نهر ارتيش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين[١] (بلاد القبجاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية) وغالبية أهلها من الأتراك والتركمان . ولكن جوجي توفي على حياة أبيه ، فقرر جنكيز خان أن تكون هذه المنطقة من نصيب حفيده باتو بن جوجي .

- أُعطي جغتاي بلاد الأويغور وأقاليم ما وراء النهر ، وكاشغر وبلخ وغزنة .

- اختص أوكتاي بالمنطقة الواقعة بين جبل « تارباجاي » وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر إيميل الذي يصب في بحيرة ألاجول .

- أما تولوي ، أصغر أبناء جنكيز خان ، فحصل على منغوليا التي تشمل وديان وأنهار كيرولين وأونون وأورخون إضافة إلى منطقة قراقورم .

وبوفاة جنكيز خان ، ظل العرش خالياً مدة عامين ،

---

(١) Grousset, op. cit., P. 316 - 319.

ثم اجتمع مجلس الشورى المغولي ، (القوريلتاي) ، في ربيع ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م ، واختير أوكتاي خاقاناً للامبراطورية المغولية[١] .

(١) وهي الجزء الغربي من كازاخستان الحالية .
Lemercier, quelquejay, op. cit., P. 27.

الفصل الثاني

حروب المغول من أيام أوكتاي حتى عهد قوبيلاي قاآن

أولاً: الأعمال الحربية في عهد أوكتاي

I ـ غزو إيران مجدداً

كان جلال الدين منكبرتي قد أعد ، وهو في الهند ، جيشاً كبيراً ، واستغل فرصة انشغال المغول بأمورهم الداخلية ورجع من الهند ، وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية من جديد ، ونجح إلى حد كبير في ذلك ، ولم يبق خارج دائرة نفوذه سوى إقليم ما وراء النهر ، فشملت دولته : خراسان ، وكرمان ، وفارس ، والعراق العجمي ، وأذربيجان ، كما نهب قلاع الإسماعيلية ، عام ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م ، عندما بلغه أنهم على اتصال بالمغول . ولما تولى أوكتاي خاقانية المغول ، أرسل جيشاً قوياً استولى به على الري وهمذان وما بينهما من بلاد . ثم قصد أذربيجان ، وانتصر على جلال الدين بظاهر مدينة آمد ، عام ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م ، ففر جلال الدين إلى جبال كردستان حيث

قتله أحد الأكراد[1] . وبمقتل جلال الدين منكبرتي ، آخر ملوك الخوارزمية ، أصبحت الطريق ممهدة أمام المغول للتحرك باتجاه معظم أرجاء العالم الإسلامي المعروف آنذاك .

II - فتح أقاليم الصين الشمالية

بدأ أوكتاي منذ توليه الزعامة المغولية ، يعّد العدة لفتح بلاد الصين الشمالية التي لم يستطع والده أن يحتل منها سوى بعض أقسامها الشمالية ، كشبه جزيرة شانتونج ، وأطراف خليج بتشيلي والعاصمة بكين . أما بقية أجزاء المنطقة ، فكانت لا تزال تحت حكم أسرة كين التي نجحت في استرداد قسم كبير من مملكتها بعد رحيل جنكيز خان عنها ، واتخذت مدينة كاي - فونج ، في هونان ، عاصمة لها .

وفي العام ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م ، تحرك أوكتاي مع أخويه جغتاي وتولوي إلى سهل « هوانج - هو » ، واحتلوا مدينة « فنج سيانج » في «حوض هواي - هو»، على مشارف « تونج كوان » ، الواقعة على ملتقى نهري

---

(١) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨٢- ٣٨٣ .

«هـواي ـ هـو» و «هـونج ـ هـو» ، ثم قسموا جيشهم إلى قسمين رئيسيين ، استدارا حول « تونج كوان » :

ـ القسم الأكبر، بقيادة أوكتاي، انطلق شمالاً بشرق باتجاه « هوتشونج » واحتلها ، مما سمح له باجتياز النهر الأصفر (هوانج ـ هو) واجتياح إقليم هونان من الشمال .

ـ القسم الثاني ، وهو من ٣٠ ألف خيال ، بقيادة تولوي ، قام بمناورة واسعة جنوباً بغرب ، واجتاح مملكة سونج ، وعبر من نهر الواي ، إلى أعالي نهر الهان ، واحتل مدينة « هان ـ تشونج » في إقليم زتشوان ، وسار بمحاذاة نهر كيالنج واحتل إقليم باوننج ، ثم عاد فاجتاز نهر الهان من جديد ، مطلع العام ١٢٣٢ م ، وظهر جنوبي إقليم هونان ، من جهة « نان يونج » . حيث التقى الجيشان المغوليان في قلب الإقليم المذكور، في مدينة كيونج ـ شو. ثم أرسل أوكتاي القائد المغولي «سوبوتاي» لاحتلال العاصمة كاي ـ فونج ، فحاصر المدينة طويلاً إلى أن سقطت بيده عام ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م ، وقتل معظم سكانها. .

وتابع المغول سيطرتهم على مملكة كين ، وكانت تساي ـ تشيو (Tsai - Tsheo) آخر مدينة صينية شمالية

سقطت بأيديهم ، وذلك عام ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م[١] . أما حكام الصين الجنوبية من أسرة سونج (Soong) فقد هللوا وباركوا حملة المغول على مملكة كين، ولم يكتفوا بذلك بل عرضوا تقديم المؤازرة العسكرية لأوكتاي، طمعاً بأن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية . فلما خاب أملهم بتحقيق ما عللوا النفس به ، نشبت الحرب بينهم وبين المغول ، وانتهى الأمر بالقضاء على أسرة سونج ، وضم أملاكهم إلى الدولة المغولية[٢] (تم ذلك في عهد خلفاء أوكتاي) .

III - اجتياح أوروبا الشرقية

وبعد عودته من الصين مظفَّراً ، أعد أوكتاي جيشاً كبيراً (١٥٠٠٠٠ مقاتل) ، عام ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م ، وعهد بقيادته إلى باتو بن جوجي ، وكلفه احتلال بلاد الروس والجركس والبلغار ، وأقاليم أوروبا الشرقية على أن يساعده في مهمته القائد سوبوتاي .

تمكن الجيش المغولي من الاستيلاء على كامل

---

(١) Lemercier - quelquejay, La paix, P. 28.

(٢) Ibid., P. 22.

المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم ، التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار ، ففُتحت الطريق إلى بلاد الروس . ثم هزم المغول تحالف أمراء الروس عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م ، وأحرقوا موسكو ، ودمروا موروم وياروسلاف وفلاديمير ، وغيرها من الإمارات القائمة في أعالي الفولغا . تحرك الجيش المغولي إلى مملكة أوكرانيا ، وعاث فيها فساداً وتدميراً ، واستولى على العاصمة كييف عام ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م ، ودمرها ونهب إمارة غاليشيا الروسية ، وبذلك سقطت روسيا بأكملها بيد المغول [١] .

وبعد أن أتم المغول فتح روسيا ، انقسمت قواتهم إلى جيشين : زحف الأول إلى بولندا ، وتوجه الجيش الثاني إلى بلاد المجر .

- هزم الجيش الأول ، بقيادة كيدو وبيدرا ، البولونيين في موقعة « شميلنك » [٢] (Chmielnik) . في رمضان ٦٣٨ هـ/ آذار ١٢٤١ م ، واستولى على كراكوف ،

---

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ، ص ٣٥ - ٦٣ .

(٢) شبولر، المرجع نفسه ، ص ٣٧ ؛

Lemercier - quelquejay, la paix, P. 32.

وسار بمحاذاة الأودر ، واحتل مدينـة برسلو (Breslau) ودمَّرها ، ثم وصل إلى برلين ، بعد أن خرب المدن التي صـادفتـه . انـدفـع الجيش المغـولي في وسط بـولنـدا ومـورافيـا ، وحصلت المعـركـة الحـاسمـة في سهـل فالستات[١] . (Wahlstadt) قرب ليكنتز (Liegnitz) في سيليسيا ، في رمضان ٦٣٨ هـ/ نيسان ١٢٤١ م . وبعد ذلك تحرك المغول باتجاه جنوب غربي تلال سيليسيا ، عبر ممرات مورافيا ، وحاصروا مدينة أولموتز واستـولوا عليها .

ـ اجتـاح الجيش الثاني جبـال الكارابـات الجنـوبيـة والوسطى ، عبر ترانسلفانيا إلى بلاد المجر (هنغاريا) ، وهزم الجيش المجري في وقعة سهل موهي[٢] ، في ١١ نيســان ١٢٤١ م ، واستـولى على بست ، عـاصمـة المجر ، وتقدم إلى ڤيينا من جهة ، وإلى بحر الأدرياتيك من جهة أخرى .

ولم يتوقف اندفاع باتو داخل أوروبا إلاّ بعد أن وصلته أنباء وفاة الخاقان أوكتاي ، في قراقورم ، في ١١ كانون

---

(١) شبولر ، المرجع السابق ، ص ٣٧ ؛
Lemercier - quelquejay, Op. Cit., P. 32.

(٢) شبولر ، المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

الأول ١٢٤١ م ، فتراجع إلى المنطقة المفتوحة ، شمال البحرِ الأسود ، على طول نهر الفولغا ، ينتظر ما ستتمخَّض عنه الأحداث حول خلافة أوكتاي . .

وهكذا أفلتت من يد «باتو» جميع الفتوحات التي أحرزها في المجر، واستقرت القبائل التابعة لباتو (القبائل الذهبية)[1] في سهوب الفولغا الوسطى والعليا، ومنطقة شمال شرقي البحر الأسود لتكون مركز استقرار للمغول في شرقي أوروبا . واختيرت « سراي » أول عاصمة بنيت للمغول ، في جوار قرية سلترينوي الحديثة ، في منتصف الطريق بين مدينتي ستالينغراد واستراخان .

(١) القبائل الذهبية : دعيت بهذا الاسم نسبة إلى خيمة الخان المذهَّبة .

ثانياً: العمليات العسكرية في عهد منكو قاآن
(٦٤٨ هـ ـ ٦٥٨ هـ / ١٢٥١ ـ ١٢٥٩ م)

لم تمدنا المصادر التي بين أيدينا بمعلومات هامة عن النشاط العسكري في عهد كيوك ـ خان (٦٤٤/ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م) الذي خلف أوكتاي في خاقانية المغول ، وذلك لانشغال الأمراء المغول في الصراع على السلطة ، بينما تحدثت هذه المصادر عن حملتين كبيرتين وجههما منكو لتوسيع رقعة امبراطوريته في البلاد التي لم يتيسر له فتحها من قبل .

١ ـ **الحملة الأولى** : قصدت الصين الجنوبية في عام ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨ م ، بقيادة أخيه الأوسط قوبيلاي ، وشارك بها القاآن نفسه ، ونجحت الحملة باحتلال قسم من تلك البلاد التي كانت تدعى « منزى » . ثم عاد قوبيلاي إلى بلاده عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م ، حين علم

بوفاة أخيه منكو ليشترك في تعيين الخان الجديد[1] .

٢ ـ **أما الحملة الثانية** : فكانت بقيادة هولاكو ، الأخ الأصغر لمنكو ، الذي عهد إليه القضاء على طائفة الإسماعيلية وإخضاع الخلافة العباسية (وسوف نتحدث عن هذه الحملة فيما بعد) .

---

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ فؤاد الصياد ، المغول ص ٢١٦ .

ثالثاً : الإنجازات العسكرية في عهد قوبيلاي قاآن (٦٥٨ - ٦٩٣ هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٩٤ م)

بعد أن استقر له الحكم ، ووضع حداً لطموحات أخيه أريق بغا الذي أعلن نفسه خاقاناً ، إثر وفاة منكو ، وانتزع منه العاصمة قراقورم وأسره وأودعه السجن إلى حين وفاته ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م ، واصل قوبيلاي الفتوحات في الأقاليم الجنوبية للصين التي استمرت نحـ عشرين عاماً ، تم له خلالها الاستيلاء على تلك الأقاا نهائياً ، عام ٦٧٨ هـ/ ١٢٨٨ م ، فقضى بذلك ؛ أسرة سونج (ملوك تلك المنطقة) ووحَّد أقاليم الد الجنوبية والشمالية تحت حكم المغول[١] .

(١) فؤاد الصياد ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ - ٢١٨

الفصل الثالث
حروب المغول في عهد هولاكو وخلفائه من إيلخانات إيران[1]

(١) اشتملت دولة الإيلخانات على إيران ، والعراق وشرق الأناضول ، وكانت عاصمتها تبريز .

أولاً: العمليات العسكرية في عهد هولاكو

I- حملة هولاكو على إيران والقضاء على الإسماعيلية والخلافة العباسية

كانت الحالة في بلاد فارس، منذ غزو جنكيز خان، لا تزال مشوّشة، والإقليم الوحيد الذي وطّد فيه المغول سلطتهم على أسس ثابتة، هو إقليم خراسان في الشمال الشرقي من البلاد. أما الأقاليم الأخرى، فقد احتفظت باستقلالها عن الحكام المغول الذين لم يفلحوا بفرض سيطرتهم الفعلية عليها.

وفي عام ٦٥٣ هـ/ ١٢٥٥ م، تحركت الحملة التي جهزها منكو، بقيادة أخيه هولاكو، إلى بلاد فارس، واستولت على سمرقند. ثم عبر هولاكو نهر جيجون (أموداريا)، ووصل إلى جنوب بحر الخزر، حيث المنطقة الجبلية التي تتحصن فيها طائفة الإسماعيلية، (إقليم قهستان الجبلي الواقع بين هراة ونيسابور)، فاستولى على قلاع هذه الطائفة تباعاً، وخاصة حصن

« ألموت » الشهير الذي سقط في شهر المحرم ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م[١] .

وبعد أن أخضع الأمراء الصغار في شمال غربي بلاد العجم ، وأمراء اللور الأكراد في جبال زاغروس ، قصد همذان ، ونزل منها إلى نهر دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان ، وعسكر بظاهر مدينة بغداد من جهة الشرق .

ثم زحف هولاكو على بغداد وحاصرها إلى أن سقطت بيده يوم الأحد في صفر ٦٥٦ هـ/ ١٠ شباط ١٢٥٨ م ، وأحدث فيها مذبحة رهيبة ، طالت الخليفة المستعصم بالله العباسي نفسه[٢] .

II - حملة هولاكو على بلاد الشام

إبان شروعه في الزحف على بغداد ، استولى هولاكو على إربل التي كان يقيم فيها جماعة من الأكراد ، وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام . وبعد أن أحكم سيطرته على الجزيرة الفراتية ، باستيلائه على ميافارقين وماردين ، سار هولاكو في رمضان ٦٥٧ هـ/

---

(١) D'Ohsson, Histoire des Mongols, Vol. III, P. 197.

(٢) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٣٠٧ - ٣٠٩ ؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر ٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

١٢٥٩ م ، باتجاه شمال غربي الشام ، وتولى كتبغا مقدمة جيشه ، واجتاز نصيبين ، وحرّان ، والرها ، حتى بلغ البيرة ، فعبر نهر الفرات واستولى على سروج[١] .

١ ـ احتلال حلب : وفي أوائل ٦٥٨ هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٢٦٠ م ، حاصر هولاكو ، بمشاركة هيثوم ، ملك الأرمن ، وبوهيمند أمير طرابلس الصليبي ، مدينة حلب ، فسقطت في ٢٤ كانون الثاني . أما القلعة فصمدت حتى ٢٥ الشهر التالي ، وأحدث هولاكو بحلب وقلعتها مجزرة لم ينج منها سوى المسيحيين الذين لم يتعرض لهم بسوء ، « باستثناء جماعة من الأرثوذكس الذين لم يعترف بكنيستهم »[٢] . .

إثر سقوط حلب ، سارع الأشرف موسى الأيوبي ، صاحب حمص ، إلى إعلان تبعيته لهولاكو الذي كلفه بتدمير سور قلعة حماه ، وإحراق زردخانتها . عندها قدَّم أعيان حماه مفاتيح مدينتهم لهولاكو وطلبوا منه الأمان ، فاستجاب لطلبهم ، بعد أن غادرها صاحبها الأيوبي . ثم

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣ ، ص ١٩٩ ؛

D'Ohsson, Op. Cit., P. 308 - 309.

(٢) أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ؛

Grousset, Empire, P. 436.

استولى هولاكو على حصن حارم[1] . .

٢ ـ احتلال دمشق : تابع المغول زحفهم باتجاه دمشق التي فر منها الملك الناصر يوسف الأيوبي ، عندما ترامى إليه قدوم المغول ، فاضطر وجهاء المدينة إلى تسليمها ، فدخلها كتبغا في ربيع الأول ٦٥٨ هـ/ آذار ١٢٦٠ م ، وبرفقته ملك الأرمن وأمير طرابلس ، بينما صمدت قلعة دمشق لبضعة أسابيع ، ثم استسلمت في ربيع الثاني من السنة ذاتها[2] .

وبعد احتلال دمشق ، استولى المغول على بعلبك وخربوها ، ثم تابعوا زحفهم جنوباً فاستولوا على عجلون ، والسلط ، وبصرى ، والصبيبة ، وهدموا قلاعها ، كما هاجموا صيدا الصليبية ، ونهبوها ودمروها ، ثم توجهوا إلى نابلس وأخضعوها ،وظل المغول يتنقلون في بلاد الشام حتى فتحوها إلى غزة .

وقصارى القول أنه خلال مدة وجيزة ، تم استيلاء المغول على بغداد ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، وبلاد

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ص ٢٠٢ ؛
Grousset, Op. Cit., P. 436.

(٢) أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ .

الشام الداخلية بأسرها[1] .

٣ ـ وقعة عين جالوت وهزيمة المغول : بعد أن استتب لهم الأمر في بلاد الشام ، توجهت أنظار المغول إلى مصر ، فكثرت رسلهم إلى الديار المصرية للضغط على السلطان المملوكي قطز كي يذعن لإرادتهم ، إلاّ أن هذا الأخير لم يستجب لطلبهم ، لأنه وجد في قتال المغول أمراً لا بد منه لدعم سلطته المتقلقلة في القاهرة ، عبر تجميع كل القوى المسلمة تحت راية الجهاد التي يتزعمها ، والعمل على دحر المغول ، كمقدمة لضم بلاد الشام إلى الديار المصرية . لذا لم يكن مفاجئاً أن يأمر السلطان بقتل رسل المغول لوضع حدّ لأي مسعى سلمي مع هولاكو .

وصادف ، في هذا الوقت ، أن توفي منكو خان ، ونشبت الحرب الأهلية في منغوليا ، فاضطر هولاكو للعودة إلى بلاده على رأس جيشه تاركاً ، في بلاد الشام ، فرقة عسكرية تتراوح بين ١٠ و ٢٠ ألف مقاتل .

وفي رمضان ٦٥٨ هـ/ آب ١٢٦٠ م ، عبر الجيش المملوكي الحدود وعلى رأسه السلطان قطز ، وتولى

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

بيبرس قيادة المقدمة ، فاحتل المماليك غـزة ، بعد أن قضوا على حاميتها المغولية ، واجتازوا الأراضي الصليبية قرب أسوار عكا ، وعسكروا في الحدائق خارج المدينة (عكا) عدة أيام . وبينما كان المظفر قطز في عكـا ، علم باجتياز كتبغـا نهر الأردن ، ووصـوله إلى الجليـل الشرقي ، فبادر على الفور إلى توجيه جيشه إلى الجنوب الغـربي ، مجتازاً النـاصرة ، فـوصـل في ٢٥ رمضـان ٦٥٨ هـ/ ٢ أيلول ١٢٦٠ م ، إلى عين جـالـوت بين بيسان ونابلس[١] .

وفي تلك الأثناء ، وصل كتبغا إلى المكان نفسـه ، ووقعت بين الطرفين معركة عنيفة ، أسفرت عن انتصار المماليك ومقتل كتبغا ، فأسرع ولاة المغول بالهرب . وهذا بعض السر في استيلاء قطز في أسابيع قليلة على الداخل الشامي بأسره . وكانت عين جالوت أبعد نقطة للتوسع المغولي في بلاد الشام باتجاه مصر[٢] .

وفي عـام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م ، احتـل المغـول الموصل ، وصمدت قلعتها مدة ستة أشهر ثم استسلمت للغزاة .

---

(١) Lewis, art. «'Ayn Djalut», EI_2, I_1. P. 810 - 811.

(٢) Lewis, Ibid., P. 811.

III ـ المواجهة بين هولاكو وبركة

سار بركة عاهل مملكة التتار في جنوب روسيا ، من القبجاق قاصداً إيران لمحاربة هولاكو ، الذي كان قوبيلاي قد ولاه على الممالك الواقعة بين شاطىء نهر جيحون وبلاد الشام ومصر ، فعبر بركة دربند القوقاز (الحدود الفاصلة بين المملكتين المغوليتين) ووصل إلى شروان وتقدم هولاكو بجيشه باتجاه الدربند ، وأرسل ولده آباقا إلى داخل مملكة بركة ، فحصلت مواجهة بين بركة وآباقا عند نهر ترك انتهت بانتصار بركة على خصمه في جمادى الأولى ٦٦١ هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٢٦٣ م . ولكنه لم يفلح في إخراج هولاكو من القوقاز[١] .

وظل الصراع قائماً بين الطرفين إلى أن توفي هولاكو يوم الأحد في ١٩ ربيع الثاني ٦٦٣ م/ ١٢٦٥ م ، وله من العمر ٤٨ سنة ، ثم توفي بركة عام ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م، إلّا أن الصراع بين القبيلة الذهبية وإيلخانات إيران من سلالة هولاكو لم ينته بل امتد حتى نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .

---

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ، ص ٥١ .

ثانياً : العمليات العسكرية في عهد أباقا

قام المغول في عهد أباقا ، بالتعاون مع الأرمن ، بهجوم على شمال بلاد الشام ، عام ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م ، واحتلوا عينتاب وبغراس ودربساك ، ودخلوا حلب ونهبوها[١] . وفي عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م ، قاد آباقا بنفسه حملة إلى بلاد الشام من إقليم الجزيرة ، وسيّر أخاه منكوتمر على رأس جيش آخر إلى الشام أيضاً ، انطلق من كبادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضم إليهما جيش بقيادة ليو الثالث ، ملك أرمينية ، وزحف المغول عن طريق وادي العاصي ، ووصلوا إلى حمص ، حيث كان يرابط الجيش المملوكي .

وفي وقعة حمص التي جرت في ١٤ رجب ٦٨٠ هـ/

(١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، ص ٤١١ - ٤١٢ ؛ المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨١ - ٦٨٢ .

٣٠ تشرين الأول ١٢٨١ م ، هُزم المغول ، وهربوا عبر الفرات ، وانسحب ليو الثالث إلى بلاده ، فكمن له جماعة من التركمان والأكراد وقتلوه[١] .

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٠ - ٦٩٦ .

ثالثاً : العمليات العسكرية في عهد محمود غازان

I ـ خروج غازان إلى بلاد الشام للمرة الأولى

اقتصرت العمليات العسكرية الهامة في عهد غازان على مواجهة المماليك ، حيث أمضى الزعيم المغولي شطراً كبيراً من حياته في محاربتهم ، ومما شجع غازان على التفكير باحتلال بلاد الشام وضمها إلى مملكته ، أخبار التفكك والتنافس على السلطة بين أمراء المماليك ، كما أن عوامل كثيرة دفعت بغازان لمهاجمة بلاد الشام منها : تحريض السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمراء المسلمين على طرد المغول من إيران والعراق ، وغزو المماليك لبلاد الأرمن ، الحليف الطبيعي للمغول في إيران ، واستضافه السلطان كتبغا المملوكي لأمراء مغول مناوئين لغازان ، كانوا قد فروا إلى الديار المصرية بعد انتصار غازان على خصمه بايدو (المغول العويراتية) . وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى ازدياد هوة الخلاف بين غازان والمماليك ، وأصبح العراك بين الطرفين أمراً محتوماً .

وفي خريف ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م ، جهز غازان حملة عسكرية قوامها ٣٠ ألف مقاتل ، وعهد بقيادتها إلى قتلغ شاه ، وأمره بالتوجه إلى آسيا الصغرى(بلاد سلاجقة الروم) ، وأن يسير بمحاذاة الفرات . ثم انطلق غازان من تبريز على رأس جيش آخر نحو ديار بكر ، حيث انضمت إلى الجيش قوات مغولية وفدت من مختلف النواحي ، حتى أضحى عدد الحملة ٩٠ ألف مقاتل . وبالمقابل خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون من القاهرة على رأس جيش كبير ، ودخل عسقلان في ٨ ربيع الأول ٦٩٨ هـ/ كانون الأول ١٢٩٨ م . وبوصوله إلى بلاد الشام التحقت به قوات نواب السلطنة هناك .

التقى الجيشان عند قرية تعرف باسم « مجمع المروج » في وادي الخزندار (وقعة وادي الخزندار) بين حماه وحلب ، وذلك في ٢٧ ربيع الأول ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م ، فأسفرت المعركة عن انتصار المغول وانهزام المماليك[١] ، رغم انتصارهم في بداية المواجهة . فتراجع السلطان بطائفة يسيرة من جيشه ، والتجأ إلى بعلبك ، ثم سار إلى دمشق وانتقل منها إلى القاهرة .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ص ٤٢ ـ ٤٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٦ ـ ٨٨٧ .

وبعد هذه المعركة ، فُتحت الطريق أمام غازان ، فسار إلى حمص ونهبها ، ثم رحل إلى دمشق ، فسارع أعيانها وفقهاؤها إلى مقابلته ، ونجحوا في الحصول منه على الأمان ، ودخل غازان المدينة ، واستولى على بقية أرجاء الشام ، وعاث جنده فساداً في كافة البلاد ، وخاصة في بيت المقدس والكرك ، ولم ينج من أيديهم إلّا قلعة دمشق .

وفي جمادى الأولى ٧٠٠ هـ/ ١٣٠١ م ، ترك غازان دمشق عائداً إلى إيران لمعاقبة الجغطائيين (التورانيين) الذين هاجموا حدود مملكته الشرقية من ناحية خراسان ، فحاربهم وطردهم ، وتعقبهم داخل بلادهم.

II ـ عودة غازان إلى بلاد الشام وهزيمته

بعد وقعة الخزندار ، باتت بلاد الشام بيد المغول الذين أقاموا فيها إدارة مغولية تتبع الإيلخان في تبريز ، بإشراف قتلغ شاه ، نائب غازان ، ومعه ٦٠ ألف مقاتل مغولي ، وعيّن سيف الدين قبجق ، المتعاون مع المغول ، نائباً لدمشق ، ثم انفرد قبجق بإدارة الشام بعد أن لحق قتلغ بسيده ، بعد عشرة أيام من رحيله .

استغل قبجق الفرصة وغدر بالمغول ، وأخرجهم من

البلاد ، وأعلن ولاءه للناصر محمد بن قلاوون ، فعادت بلاد الشام إلى حوزة المماليك .

ولمواجهة المستجدات في بلاد الشام ، جهز غازان جيشاً كبيراً وسار إليها من تبريز ، وعبر نهر الفرات إلى أنطاكية ، واكتفى بمهاجمة المدينة وجبل السماق ، ونهب الأموال والفتك بالأهالي ، وحالت الأمطار الغزيرة والبرد الشديد دون دخوله دمشق .

وبعد أن تبادل غازان والناصر محمد المراسلات التي لم تؤت ثمارها، استعد الفريقان للقتال، فنزل المغول على الفرات ، ثم التقوا بجيش نواب الشام المماليك ، بمكان يعرف بـ « الكوم » بالقرب من « عرض » ، بين تدمر والرصافة ،عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م ، حيث اشتبك الطرفان ، ودارت رحى الحرب بينهما .

وفي هذه الأثناء خرج السلطان الناصر محمد من القاهرة لملاقاة المغول في بلاد الشام . ولم يمض وقت طويل حتى التقى نواب الشام بالسلطان محمد في ضواحي دمشق ، ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بمرج الصفَّر ، بين دمشق وبصرى ، ودارت بين المماليك والمغول معركة قاسية (معركة مرج الصفَّر) في ٢ رمضان ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٣ م ، انتهت

بهزيمة المغول ، وخروجهم من بلاد الشام[1] . وفي ١١ شوّال٧٠٣ هـ/ ١٧ آيار ١٣٠٤ م ، توفي غازان ، وخلال هذه السنة كان أخوه محمد خدابنده يدير حملة عسكرية على تخوم الهند .

وبعد وفاة غازان ، لم تسجل لنا المصادر أحداثاً عسكرية هامة حتى ظهور تيمور الذي حفل عهده بتطورات عسكرية ملفتة ، سنوليها اهتمامنا في مكانها من هذه الدراسة .

ورغم ذلك ، فإن المؤرخين يتحدثون عن بعض النشاطات الحربية الملحوظة التي جرت في عهدي محمد خدابنده بن أرغون (أولجايتو) ، وأبي سعيد بهادر خان آخر ملوك الإيلخانات العظام الذين حكموا إيران .

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٩ ، ص ٨٢ - ١٠٠ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، م ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

رابعاً : العمليات في عهد محمد خدابنده « أولجايتو »

في أيام محمد خدابنده « أولجايتو » (٧٠٣ - ٧١٦ هـ/ ١٣٠٤ - ١٣١٦ م) نفذت حملتان : .

الأولى : في آسيا الصغرى ، قام بها العاهل المغولي تلبية لطلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، لمساعدته في قتاله ضد الدويلات التركية على الحدود البيزنطية[١] .

والحملة الثانية لخدابنده ، وُجِّهت إلى بلاد الشام ، حيث خرج الإيلخان من تبريز ، في ١٨ صفر ٧١٢ هـ/ حزيران ١٣١٢ م ، قاصداً الشام ، إلاّ أنه اصطدم بمناعة المقاومة في الرحبة ، أولى القلاع المملوكية على تخوم الشام ، مما اضطره للعودة إلى تبريز في ٢٦ رمضان من السنة نفسها[٢] .

---

(١) Grousset, Empire, P. 460 - 461.

(٢) ابن أيبك الدواداري ، المصدر السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦
Grousset, Ibid., P. 464.

خامساً : العمليات في عهد أبي سعيد بهادر

أما أبو سعيد بهادرخان (٧١٦ ـ ٧٣٦ هـ/ ١٣١٦ ـ ١٣٣٥ م) ، الذي ساءت الأوضاع الداخلية في أيامه ، فشهد عهده غارات قام بها بعض أمراء المغول في الدولة الجغطائية في تركستان والقبيلة الذهبية (آلتون وآوردو) في جنوب روسيا ، على أطراف الدولة الإيلخانية للاستيلاء على السلطة ؛ فاستولى الجغطائيون على خراسان[١] ، وتقدموا نحو مازندران وخربوها ، ولم يتوقف اندفاعهم في الأراضي الإيرانية إلاّ بعد هزيمتهم ومقتل قائدهم « ياسور » بتواطؤ ظاهر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون[٢] . وفي تلك الأثناء ، أغار أوزبك خان ملك القبجاق (القفجاق) على أملاك الدولة الإيلخانية ، إلاّ أنه لم يفلح في تحقيق أي هدف في النواحي الشرقية التي هاجمها .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 464.

(٢) اليوسفي ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، ص ١٧٠ ـ ١٧٥ .

الفصل الرابع
الحروب في « عصر تيمورلنك

عصر تيمورلنك

استمرت حالة التفتت والصراع تنهش في جسم الامبراطورية المغولية الجنكيز خانية ، حتى ظهور تيمورلنك[1] ، أحد نبلاء قبيلة « برلاس » التركية ، الذي نجح في إعادة توحيد الامبراطورية ، وتوسيع رقعتها ، فامتدت ، في عهده ، من بلاد الأناضول إلى سانغ - كيانغ ، ومن سيبيريا حتى الحدود الهندية .

ولم يكن لهذه الإنجازات الكبيرة أن تتحقق من دون انخراط تيمورلنك في حروب متعددة ، وعلى جبهات مختلفة؛ فقد وجه الفاتح الجديد ضربات موجعة للقبيلة

---

(١) هو تيمور ، أضيف إلى اسمه لفظة « لنك » (لانج) : وتعني بالفارسية الأعرج . ولد تيمور في شعبان (أو في رمضان) ٧٣٦ هـ/ نيسان ١٣٣٥ م ، في مدينة كش ، من وراء النهر ، من قبيلة برلاس التركية ، وأقام امبراطورية مترامية الأطراف ، سنتحدث عن ظروف إنشائها في سياق الدراسة .

الذهبية في القبجاق (القفجاق) ، واحتل إيران والعراق ، وتحدى الدولة العثمانية الفتية في عقر دارها ، واجتاح الشام والهند ، وكان يستعد لغزو بلاد الصين عشية وفاته ، عام ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م ، معتمداً في ذلك على جيش قوي قوامه الأتراك ، والقبائل المغولية القديمة ذات الأصول التركية .

تميزت حملات تيمور بالعنف الشديد وغلب عليها طابع السلب والنهب ، ولم تراع الاعتبارات الجغرافية ، ومن ذلك : أن تيمور انتقل ، صدفة ، من طشقند إلى شيراز ، ومن توريز إلى خجند ، وقام بغزو روسيا ما بين حملتين على بلاد فارس ، وغزا آسيا الوسطى خلال حملتين قام بهما على بلاد القوقاز . ولعل السبب في كل ما تقدم يعود إلى أن تيمور ، الذي ارتضى لنفسه لقب « الأمير » دون لقب « الخان » ، لم يكن يطمح لبناء امبراطورية عالمية على غرار ما سعى إليه سلفه جنكيز خان .

أما أبرزالحروب التي خاضها تيمورلنك ، فتوزعت على الجبهات التالية :

أولاً : حروب تيمورلنك في خوارزم وبلاد الجتا (بلاد الجغتاي)

بعد أن نجح تيمور في الاستيلاء على ما وراء النهر ، سعى إلى تأمين حدوده الشمالية والغربية ، فكان عليه أن يتحرك في خوارزم ، وبلاد الجتا (بلاد الجغتاي) .

I ـ الاستيلاء على خوارزم

قام تيمور بأربع حملات إلى خوارزم أسفرت عن اخضاع تلك البلاد لنفوذه .

١ ـ **الحملة الأولى** : (ربيع ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م) :

انطلق تيمور من عاصمته سمرقند ، في ربيع ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م ، وعبر صحراء قزيل ـ كوم ، واستولى على أول مدن خوارزم ، مدينة كاث ، ثم اجتازت قواته نهر قارون ، أحد فروع جيحون ، وحاصرت أوركنج حيث مات حسين صوفي ، المستولي على خوارزم ، أثناء الحصار . وتوصل أخوه يوسف صوفي، الذي خلفه في الحكم، إلى عقد اتفاقية صلح

مع تيمور ، تعهد بموجبها أن يحكم خوارزم ، وكيلاً عن محمد جهانكير بن تيمور ، وإعادة مدينة كش إلى تيمور، فاقتنع هذا الأخير بما حققه من مكاسب وعاد إلى عاصمته سمرقند[١] .

٢ ـ الحملة الثانية : (رمضان ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م) :

وسببها تراجع يوسف صوفي عن التزاماته اتجاه تيمور ، ومهاجمة بلاد كش ، فاستأنف تيمور الحرب ضده في رمضان ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م ، وأجبر يوسف على الرضوخ لمشيئته ، ثم عاد إلى سمرقند بعد أن قرر تزويج ابنه محمد جهانكير من الأميرة خان زاده إبنة شقيق يوسف صوفي[٢] .

٣ ـ الحملة الثالثة : (ربيع ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٦ م) :

قادها تيمور في ربيع ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٦ م ، يرافقه ولده محمد جهانكير . وما إن وصل إلى « كاث » ، إحدى المدن الرئيسية في خوارزم ، حتى بلغه أن طائفة من قبيلة جلاير تتحضّر للإغارة على سمرقند ، مستغلة

---

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٨ ؛ Grousset, Empire, P. 486.

(٢) يزدي ، المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ؛ Grousset, Ibid., P. 498.

قيام حركة معارضة لتيمور في المدينة ، فأعاد ابنه على رأس قوة لمواجهة المغيرين ، وقمع حركة التمرد ، ثم لحق به إلى سمرقند[١] .

٤ ـ الحملة الرابعة : (شوّال ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٩ م) :

استغل يوسف صوفي انشغال تيمور بحربه ضد القبيلة البيضاء ، في المجرى السفلي لنهر سيحون (سرداريا) ، وأغار على بخارى ، فسار تيمور من زنجير ـ سراي ، في شوّال ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٩ م ، وظهر بالقرب من أورجنح (أوركنج) عاصمة يوسف صوفي ، وجرت معركة على مقربة من أسوار المدينة (معركة أورجنج) ، أسفرت عن احتلال تيمور لأورجنج بعد حصار دام ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً ونهبها وقتل عدداً كبيراً من سكانها ، ثم عاد إلى سمرقند .

توفي يوسف صوفي بعد أيام قليلة من سقوط عاصمته ، وتهديمها ، وبذلك تمت سيطرة تيمور على خوارزم ، وضمها إلى مملكته في ما وراء النهر[٢] .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 499.

(٢) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٢١٥ ؛ Grousset, Ibid., P. 499.

II ـ الاستيلاء على بلاد الجتا

١ ـ الحملة الأولى : (٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م) :

بعد استيلائه على خوارزم ، قرر تيمور مهاجمة بلاد الجغتاي الشرقية (بلاد الجتا) ، فأرسل ، عام ٧٧٢ هـ ، حملة استكشافية إلى ألماتو (فيرني الحالية) ، شمال بحيرة إيسيق ـ كول ، عادت بعد أن عقدت هدنة مع خان الجغتاي (١) .

٢ ـ الحملة الثانية : (أواخر ٧٧٢ هـ أو مطلع ٧٧٣ هـ) :

حصلت أواخر ٧٧٢ هـ أو مطلع ٧٧٣ هـ ، وذلك عندما نقض تيمور الهدنة المعقودة مع ملك الجغتاي ، وتحرك من ما وراء النهر إلى بلاد الجغتاي ، وعبر نهر سيحون، واحتل مدينة «سيرام» الواقعة على نهر آريس، أحد روافد نهر سيحون شمال مدينة طشقند، وتابع زحفه إلى تالاس (أوليا أتا الحالية) ، ونشر نفوذه وسيطرته حتى مسيرة شهر ، كما يقول يزدي (٢) ، وعاد إلى بلاده محملاً بالغنائم الوفيرة .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 500.

(٢) راجع : ظفرنامه ، ج ١ ، (حوادث ٧٧٣ هـ) .

٣ ـ الحملة الثالثة : (شعبان ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م) :

وفي شعبان ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م ، قاد تيمور حملة ضد قمر الدين ، خان الجغتاي ، انطلقت من سيرام إلى تالاس ، ومنها إلى توقماق الحالية الواقعة على المجرى السفلي لنهر تشو ، فتراجع قمر الدين أمام القوة الغازية حتى مدينة « بركه إيغوريان » ، أو « آرشال أطر » ، وجرت بين الطرفين معركة قاسية بالقرب من مدينة كاستيك عند الحوض الأعلى لنهر إيلي ، في السفوح الشمالية لجبال « ألاتاو » ، فلاذ قمر الدين بالفرار باتجاه نهر إيلي . التقى تيمور ولده محمد جهانكير عند « بركه إيغوريان » ، وأمر قواته بملاحقة قمر الدين ، فبلغوا ضفاف نهر إيلي ، ثم عاد وتوجّه نحو نارين ،وقام بعمليات شمال غربي كاشغر . بينما تابع محمد جهانكير تقدمه في جغتاي الشرقية ، ووصل إلى معاقل الجتا في أوش ـ كرمان ، وعاد ووالده إلى سمرقند(١) .

٤ ـ الحملة الرابعة : (٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م) :

أغار قمر الدين على أندكان (أنديجان الحالية) ، إحدى مدن فرغانة الهامة ، جنوب نهر سيحون ، وكانت

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 501.

تحت حكم « عمر شيخ » ابن تيمور الثاني . فوجىء عمر شيخ بالهجوم ، وتراجع عن المدينة إلى الجبال المجاورة ، فدخلها قمر الدين ونهبها .

انطلق تيمور من سمرقند إلى بلاد قمر الدين (بلاد الجتا) ، وتحرك نحو الشمال الشرقي عبر سهول فرغانة حيث انضمت إليه قوات عمر شيخ ، وبلغت القوات التيمورية، في ملاحقتها قوات قمر الدين، قرية آتباشي الواقعة على نهر آتباشي .

٥ ـ الحملة الخامسة : (٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م) :

وفي العام نفسه (٧٧٧ هـ) ، عبر تيمور نهر سيحون إلى منطقة بحيرة إيسيق ـ كول ، واشتبك مع قمر الدين في الشعاب الجبلية ، إلى الغرب من البحيرة ، ولحق به حتى « كوجقار تكامشي » عند الطرف الغربي من بحيرة إيسيق ـ كول ، إلاّ أنه آثر العودة إلى سمرقند ، بعد أن وصلته أنباء قدوم توقتميش ، أحد أمراء البيت الحاكم في بلاد القبجاق ، إليها ، وعهد إلى ابنه عمر شيخ بملاحقة قوات قمر الدين ، فتتبعتها حتى سهل « كوراتو » ، على امتداد مجرى نهر كورتو الحالي ، أحد روافد نهر إيلي في مجراه السفلي ، واضطرها للفرار إلى الصحراء(١) .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 501.

٦ ـ الحملة السادسة : (٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م) :

هي بمثابة حملة تأديبية قام بها تيمور ضد قمر الدين ، وصلت إلى ما بعد بحيرة إيسيق ـ كول ، ولم يفلح في الإمساك بخصمه ، وعاد إلى سمرقند .

٧ ـ الحملة السابعة : (٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م) :

قرر تيمور حسم الصراع مع مملكة الجتا كي يتفرغ لمواجهة خان القبجاق ، بعد أن لجأ إليه توقتميش ، سليل جوجي بن جنكيز خان ، فاراً من وجه أروس خان ، حاكم بلاد القبجاق ، فزحف في عام ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م ، من « آل قوشون » بالقرب من نهر سيحون ، وعبر جبال تيان ـ شان من الجنوب إلى الشمال ، وسلك الطريق القريب من الضفة اليسرى لنهر تشو ، ووصل إلى « اي كوز » ، ومنها انتقل إلى موقع في الشمال يدعى «قراغوجور» حيث أقام فيه مركزاً لقيادته، وأرسل من هناك عدة حملات عسكرية ضد مملكة الجتا ، وكان أهمها حملتان : الأولى قادها عمر شيخ جنوباً ، ووصلت إلى « قوباق » في وادي نهر إيميل ، والثانية سارت نحو الشمال الشرقي ، وبلغت ضفاف المجرى الأعلى لنهر ارتيش .

غادر تيمور قراغوجور إلى سراي أوروم ، مقر الخان

الجغتائي ، على نهر إيميل ، وطارده شرقاً حتى وصل إلى جاليش ، قرب مصب نهر يلدوز في بحيرة باغراش-كول ، ثم عاد إلى سمرقند[٢] .

---

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ - ٣٤٩ ؛ Grousset, Op. Cit., P. 502.

ثانياً : حروب تيمورلنك في إيران

كانت بلاد إيران عام ٧٨٢ هـ ، تعيش حالة صراع بين جماعات متناحرة ، كالكرت والهيرات ، وآل مظفر ، وغيرهم ، مما شجع تيمور على غزوها .

I ـ احتلال إيران الشرقية

١ ـ الغزوة الأولى لخراسان (٧٨٢ هـ) :

في العام ٧٨٢ هـ/ ١٣٨١ م ، زحف تيمور على هراة (هيرات) التي كان يحكمها غياث الدين الثاني ابن معز الدين حسين ، صاحب مملكة كرت ، واحتل قلعة بوشنج ، في الشمال الشرقي ، ثم سقطت بيده هراة عام ٧٨٣ هـ/ نيسان ١٣٨١ م[1]، فاستولى على مملكة كرت .

---

(1) يزدي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦ ؛

Grousset, Op. Cit., P. 505.

ثم تقدم تيمور إلى خراسان الغربية ، فخضعت له مدينة كلات (كالات ـ ناديري الحالية) ، وانتقل منها إلى « طوس » التي أعلن حاكمها الدخول في طاعة تيمور .

واندفع تيمور إلى مدينة إسفرايين فاحتلها ، ثم عاد إلى سمرقند ، وترك ابنه ميرانشاه في سرخس ليراقب الوضع في خراسان(١) ، استعداداً لجولة جديدة .

٢ ـ الغزوة الثانية خراسان (٧٨٤ هـ) :

قدم تيمور ثانية إلى خراسان ، عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م ، واتجه إلى كلات وأخضعها ، في ربيع الأول ٧٨٤ هـ/ نيسان ١٣٨٢ م ، وتحرك جنوباً إلى قلعة ترشيز واقتحمها ، ثم اتجه شمالاً ليعود إلى ما وراء النهر عبر نهر وادي ترك(٢) .

٣ ـ الغزوة الثالثة لخراسان (٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م) :

في منتصف ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م ، عاد تيمور إلى خراسان ، للمرة الثالثة ، واجتاز نهر جيحون بالقرب من

---

(١) يزدي ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ ؛
Grousset, Op. Cit., P. 506.

(٢) يزدي ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٨ .

ترمذ ، وتقدَّم إلى ضفاف نهر مرغب ، ووجه أحد قواده إلى أطراف مازندران ، وتحوَّل هو إلى سبزوار عاصمة إمارة السربداريين ، عن طريق هراة(هيرات) ، واحتلها ، في رمضان ٧٨٥ هـ/ ك١ ١٣٨٣ م[١] ، ثم تقدم جنوباً إلى بلاد سجستان ، وجرت معركة كبيرة حول « زرنج » عاصمة تلك البلاد (معركة زرنج) ، في شوّال ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٤ م[٢] ، واجتاح قواد تيمور الحصون المنتشرة هنا وهناك ، حتى بلغوا حدود جبال سليمان في أقصى الجنوب ، وتمت السيطرة على منطقتي سجستان وزابلستان[٣] بكاملهما ، ثم قفل تيمور عائداً إلى سمرقند .

٤ ـ الغزوة الرابعة لخراسان (٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م) :

كان الهدف الرئيسي لعبور تيمور الرابع لنهر جيحون هو القضاء على حاكم مازنداران ، فتقدم إلى نهر مرغب عن طريق بلخ ، ثم تابع تقدمه إلى سرخس وباورد (أبيورد) ، ثم عاد غرباً إلى نسا ، واشتبك بقوات شاه

---

(١) يزدي ، ظفرنامة ، ج ١ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ؛
Grousset, Op. Cit., P. 507.

(٢) Grousset, Ibid., P. 507.

(٣) زابلستان : مقاطعة جنوب بلخ وطخارستان رقبتها غزنة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

ولي ، صاحب مازندران ، عند حصن دورون ، بين مدينتي عشق - أباد وقزيل - أرقات الحاليتين (شرق خراسان) ، وانتهى الأمر بانتصار تيمور الذي تابع ملاحقة شاه ولي حتى عبر نهر جرجان (يصب جنوب شرقي بحر الخزر) ، وحلّ بموقع « شاسمان » قريباً من النهر ، ودارت هناك معركة ثانية أسفرت عن انتصار تيمور ، وتراجع شاه ولي إلى دامغان ، فاحتل تيمور عاصمته أستراباد ، في شوّال ٧٨٦ هـ/ كانون الأول ١٣٨٤ م ، ثم دخل مدينة الري ، وتوجَّه بعدها إلى السلطانية ، إحدى عواصم الإيلخانية ، ومنها انتقل إلى تبريز[١] .

وبإسقاطه حكم شاه ولي في مازندران أحكم تيمور سيطرته على إيران الشرقية ، ووصلت فتوحاته إلى حدود إيران الغربية الخاضعة ، آنذاك ، لنفوذ الجلايريين والمظفريين .

II - احتلال إيران الغربية

بدأ تيمور بغزو إيران الغربية عام ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م ، منطلقاً من زنجير سراي ، وعبر جيحون ، وسار على طريق في شمالي خراسان ماراً بمدينتي

---

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٢٧٤ - ٢٨٦

«فيروز ـ كوه» و «ساري» ، فأعلن حاكمهما الخضوع لتيمور . واجتاح لورستان ، واتجه شمالاً إلى أذربيجان ، واحتل تبريز ، بعد أن غادرها صاحبها أحمد الجلايري إلى بغداد(١) .

ولم يبق في إيران الغربية خارجاً عن سلطة تيمور سوى آل المظفر الذين كانوا يحكمون فارس وأصفهان وكرمان ، فسارع الأمير المظفري شاه شجاع ، عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م ، إلى إعلان الولاء لتيمور لتجنيب بلاده الخراب والتدمير .

وفي عام ٧٨٩ هـ/ ٨٧' ، م ، زحف تيمور من جيلان إلى همذان ، وتقدم منها إلى أصفهان ، وأحدث فيها مجزرة رهيبة(٢) ، وتوجه بعد ذلك إلى شيراز واستولى عليها ، ثم عاد إلى سمرقند لدفع الهجوم الذي قام به خان القبجاق في ما وراء النهر(٣) .

عاد تيمور إلى فارس في بداية عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢ م ، وخاض حرباً دامت خمس سنوات ، غزا

---

(١) Grousset, Empire, P. 508.

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدورفي أخبار تيمور ، ص ٣٣ .

(٣) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

خلالها مازندران ، واستولى على آمل ، وساري ، ومشهد حصار . وبعد أن قضى فصل الشتاء في مازندران ، سار إلى لورستان ، واستولى على « لور » ، ثم عبر « دزفول » و« شوستر » وأخضع المظفريين الثائرين[١] .

وفي ربيع ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م ، اتجه تيمور من شوستر إلى شيراز ، فاستولى على قلعة « سفيد » المنيعة ، وبعد معركة طاحنة في ضواحي شيراز ، أبدى فيها المظفريون بسالة نادرة ، استولى تيمور على شيراز ، وانتقل منها إلى أصفهان وهمذان وأخذ يجهز جيشه للاستيلاء على العراق ، (سنتطرق إلى هذا الموضوع لاحقاً) .

---

(١) Grousset, OP., Cit., P. 511.

ثالثاً : اجتياح جورجيا وأرمينية الغربية

اندفع تيمور بقواته نحو الشمال ، عام ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م ، واحتل قارص وتفليس ، ثم سارإلى قراباغ ، في سهوب نهر كورا السفلي ، حيث فوجىء بهجوم حليفه توقتميش، خان القبجاق، الذي عبر الدربند (باب الأبواب) قاصداً أذربيجان ، الخاضعة آنذاك لأحمد الجلايري ، فتصدى تيمور للهجوم ، وانتصر على توقتميش ، فانسحب هذا الأخير إلى الشمال عبر باب الأبواب ، وضم تيمور أذربيجان إلى مملكته(١) .

وغزا تيمور ، بعد ذلك ، أرمينية الغربية ، ودحر العشائر التركمانية فيها ، واستولى على عدد من الحصون ، ثم نزل بجوار مدينة « أرزن روم » ، فسارع صاحب أرزنجان إلى إعلان الولاء له . واحتلت قواته مدينة خلاط ، على الساحل الشمالي الغربي لبحيرة « وان » ووصلت إلى السواحل الجنوبية لبحر الخزر (بحر قزوين)(٢) .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 508 - 509.

(٢) Ibid., P. 509.

رابعاً: حروب تيمورلنك في القبجاق

كـان الاحتكاك الأول بين تيمـور وتوقتميش ، خـان القبجاق ، عام ٧٨٨ هـ (راجع ما ورد في الصفحة السابقة) ، فكان ذلك بمثابة بداية الصراع بين تيمور وتوقتميش ، تلتها عمليات عسكرية عدة قام بها تيمور ضد بلاد القبجاق .

وفـي عام ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧ م ، بينما كان تيمور في « بردع » ، شمالي أذربيجان ، عائـداً من أُولى غاراتـه على بلاد الكرج ، هاجمه توقتميش عبربوابة دربند ، بين بحر قزوين وجبال القفقاز ، كرد على استيلاء تيمور على أذربيجان ، فعبر تيمور نهر كر (كورا الحالي) ، وهزم عدوه ، فتراجع هذا الأخير إلى بلاده عن طريق دربند .

وفـي العام نفسه (٧٨٩ هـ) ، هاجم توقتميش مـا وراء النهـر ، مستغلاً غيـاب تيمور في إيـران ، واجتاز سيحون بالقرب من « سغناق » ، وحاصر « صابران » ، وحصلت معركة بين توقتميش والقوات التيمورية ، بقيادة عمـر شيخ ، في صحـراء جـوكلك ، شـرقي أوتـرار ،

أسفرت عن هزيمة عمر شيخ وتراجعه إلى أندكان التي حوصرت . ثم تقدمت قوات توقتميش في جنوب ما وراء النهر وحاصرت بخارى ، ونهبت زنجير - سراي ، وبلغت طلائعها ضفاف جيحون في أقصى الجنوب[1] .

وظل الوضع في ما وراء النهر حرجاً حتى عودة تيمور المستعجلة ، فوصلها مطلع عام ٧٩٠ هـ/ شباط ١٣٨٨ م ، مما اضطر القوات الغازية إلى الانسحاب من المناطق التي دخلتها في ما وراء النهر .

وفي ١٦ ربيع الأول ٧٩٣ هـ/ ٢٢ شباط ١٣٩١ م ، انطلق تيمور من « ياسي » و « صابران » ، عبر صحراء الجوع إلى بلاد القبجاق ، وبلغ جبال أولغ - طاق (أولوج - طاخ الحالية) ، وانعطف نحو الشمال الغربي باتجاه نهر بيلاق - جوق (جيلانتشيك الحالية) . ثم بلغ منابع نهر توبل (توبول الحالي) ، الرافد الثاني لنهر «أوب» ، من ضفته اليسرى ، وعبر النهر إلى الضفة الغربية ووصل إلى كوستاناي ، وتقدَّم إلى نهر « يايبق » (نهر الأورال الحالي) ، وعبره مندفعاً نحو الشمال الغربي ، ووصل إلى نهرسمور (سمار الحالي) ، أحد روافد نهر الفولغا ، ثم التقى عند رافد آخر للفولغا

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٣١٧ - ٣٢٠ .

(سوك) عدوه توقتميش ، وهزمه على ضفاف نهر كندورجا (قندورجه) ـ معركة كندورجا ـ عام ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م[1] ، فالتجأ توقتميش إلى بلاد دوق لتوانيا ، وعقد معه حلفاً دفاعياً هجومياً ، تعهد الدوق بموجبه بإعادة توقتميش إلى عرش القبيلة الذهبية مقابل ولاء توقتميش له .

وبسبب التحرشات التي ما انفك خان القبجاق يقوم بها ضد بلاد تيمور ، قرر الفاتح التركي أن يهاجم هذه المرة سراي عاصمة القبجاق ، مستفيداً من وجوده في منطقة قريبة منها (شمال أذربيجان) . وبدأ حركته إلى الشمال نحو بلاد القبجاق مع قدوم الربيع في ٨ جمادى الأولى ٧٩٧ هـ/ ٣١ آذار ١٣٩٥ م ، ثم اجتاز بوابة دربند ، واشتبك مع توقتميش على ضفاف نهر ترك (معركة نهر ترك) في ٢٣ جمادى الثانية ٧٩٧/ ١٦ نيسان ١٣٩٥ م ، وأسفرت هذه المعركة القاسية عن انتصار تيمور[2] .

ثم تقدم تيمور يتعقب توقتميش حتى ضفاف نهر

---

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ، ص ١٢٣ ؛ Grousset, Empire, P. 519.

(٢) Grousset, Ibid., P. 521.

قوراي ، أحد روافد ترك ، ولاحقه عبر نهر الفولغا ، دون أن يتمكن من الإمساك به، وبلغ موقع «يلوز قلوق» في الحوض الأعلى لنهر الدون ، وبذلك أصبحت بلاد القبجاق الواسعة تحت حكم تيمور حتى نهر أوزي (نهر الدنيبر اليوم) .

وفي الوقت الذي كان فيه سيد ما وراء النهر يتأهب لمتابعة الزحف إلى بلاد الروس ، كان ابنه ميرانشاه يتابع اجتياح القطاع الغربي لبلاد القبجاق ؛ فأغار على منطقة قراسو ، ثم اقتحم عاصمة المنطقة مدينة سراي ، وعاد بعدها للالتحاق بقوات أبيه التي كانت ترابط على مشارف موسكو ، بعد اجتياح مدينتي إيلتيس وريزان .

اختلفت الروايات حول ما حلّ بموسكو في تلك الأونة ، فبينما أشار « يزدي » إلى بلوغ قوات تيمور مدينة موسكو، واغارتها على الضواحي المحيطة بها ، فإن غالبية الباحثين الأوروبيين ينفون وصول تيمور إلى المدينة ، رغم تأكيدهم على حالة الهلع التي أصابت سكان موسكو من جراء ترامي الأخبار باقتراب تيمور منها[١] .

---

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٥٤٢ . قارن بـ :
Grousset, Op. Cit., P. 521.

وفي ٨ ذي العقدة ٧٩٧ هـ/ ٢٦ آب ١٣٩٥ م ، تحرك تيمور من مدينة إيلتيس باتجاه « تانا » القائمة على ساحل بحر آزوف بالقرب من مصب الدون ، وأغار على المدينة وأحرقها ، وتقدم عبر سفوح جبال القوقاز الشمالية ، وحاصر مدينة « حاجي تراخان » ، على مصب نهر أتل (الفولغا) في بحر الخزر (استراخان الحالية) ، واجتاحها وأحرقها . وسار تيمور ، بعد ذلك ، على ضفاف الفولغا إلى العاصمة سراي وهدمها[1] ، ثم قرر العودة جنوباً عن طريق استراخان وبوابة دربند إلى إيران ، فبلغ أذربيجان في ربيع ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٦ م . ولما عبر نهر كر ، أصدر أمره بتعيين ولده ميرا نشاه ، حاكم خراسان ، سيداً على الأراضي الممتدة من دربند (باب الأبواب) إلى بغداد ، ومن همذان حتى بلاد الروم ، مما يفيد أن تيمور لم يتخذ أي إجراء فعلي لإلحاق بلاد القبجاق بمملكته .

---

(١) Grousset, Op. Cit., P. 521 - 522.

خامساً: حروب تيمورلنك في العراق العربي

I ـ الحملة الأولى على العراق

بعـد إجهازه على دولة آل مظفر ، انتقل تيمور، في شعبـان ٧٩٥ هـ/ حـزيـران ١٣٩٣ م، من شيـراز إلى أصفهـان وهمذان ، وأخـذ يعد العـدة للاستيـلاء على العـراق الخاضـع ، آنذاك ، لسلطة أحمـد الجلايـري المغلي .

وفـي شوّال ٧٩٥ هـ/ آب ١٣٩٣ م ، نفذ تيمور إلى أراضي العـراق من معابـر جبلية ضيقـة ، إلى منـطقـة شهرزور ، قرب المجرى الأعلى لنهر الزاب الأسفل ، واتجه جنوباً إلى بغداد ، فهرب أحمد الجلايري باتجاه الغرب ، فوقع أسيراً بيد ميرانشاه في منطقـة كربـلاء ، لكنه نجح في الإفلات من الأسر ، وفرَّ إلى القاهرة في أيام السلطان المملوكي برقـوق ، فاستسلمت بغـداد[1]

(١) ابـن خـلدون ، الـعـبـر ، ج ٥ ، ص ١١٧٣ ـ ١١٧٤ ؛ المقريزي ، السلوك ٢/٣ ؛ ص ٧٨٩ ، ٧٩٠ ـ ٧٩١ .

لتيمور الذي توجه ، بعد ذلك شمالاً ، لمحاربة الأكراد ، واستولى على قلعة تكريت عنوة عام ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م[١] ، وتابع طريقه لاحتلال قلاع الأكراد (كردستان) وديار بكر :

استولى على ماردين بعد حصار شديد ، في ربيع الثاني ٧٩٦ هـ/ آذار ١٣٩٤ م ، وأخضع آمد وميافارقين في الجزيرة[٢] .

II ـ الحملة الثانية على العراق

قام تيمور، عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م، بحملة ثانية على العراق وحاصر بغداد ، فهرب أحمد الجلايري الذي كان قد عاد إلى بغداد عام ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م ، بدعم من السلطان المملوكي برقوق . وبعد مقاومة عنيفة سقطت بغداد بيد تيمور، في أواخر ذي العقدة ٨٠٣ هـ/ تموز ١٤٠١ م ، وهدمها[٣] .

---

(١) المقريزي، المصدر السابق، ٧٩٩؛ Grousset, OP. cit., P. 512.

(٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ٧٩٩ .

(٣) Grousset, OP. cit., P. 513.

سادساً: حروب تيمورلنك في الهند
(٨٠٠ - ٨٠١ هـ/ ١٣٩٨ - ١٣٩٩ م)

قبل قيام تيمور بحملته إلى بلاد الهند ، سبقه إليها حفيده بير محمد بن محمد جهانكير ، في عام ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨ م[١] ، منطلقاً من خراسان ، ووصل إلى مدينة «ملتان» ، أكبر المدن الهندية في حوض نهر السند ، واحتلها ، مما أغرى تيمور بمهاجمة بلاد الهند .

في ١٢ المحرم ٨٠١ هـ/ ٢٤ أيلول ١٣٩٨ م ، عبر تيمور السند من الشمال ، واستولى على حصن « طلمبا » عند التقاء نهر جين - آب برافده نهر أوي ، في صفر ٨٠١ هـ/ تشرين أول ١٣٩٨ م ، وتقدم إلى قريتي « جهوال » و « ديباليور » ، واحتل حصن « بهاتنير » المجاور ، ثم استولى على « سرسوتي » (سرسطي) ، و «فتح أباد» ، شمال غربي دلهي ، كما سيطر على

(١) Grousset, Op. Cit., P. 524.

المناطق المحيطة بدلهي ، قبل الإغارة عليها . ثم عبر نهر « جون » ، أحد روافد نهر الغانج ، حيث تقع عليه دلهي ، واستولى على حصن « لوني » ، شمال شرقي دلهي .

وفي ٧ ربيع الثاني ٨٠١ هـ / ١٨ كانون الأول ١٣٩٨ م ، هاجم الفاتح التركي العاصمة دلهي (معركة دلهي) وسقطت المدينة بعد قتال ضار[١] . دخل تيمور حاضرة الهند في ٩ ربيع الثاني من السنة ، وأحدثت فيها قواته مذبحة عظيمة ، رغم الأمان الذي أُعطي لعلمائها ووجهائها .

وبعد سقوط دلهي ، تقدم تيمور إلى ضفاف الغانج ، واستولى على مدينة «باغبت» (لا تزال تحمل الاسم نفسه إلى يومنا هذا) ، ثم عبر سهل الدوآب (سهل النهرين) قاصداً نهر كنك (الغانج) وتابع تقدمه شرقاً حتى بلغ « تغلق بور » على ضفة الغانج ، وعبر النهر إلى ضفته الشرقية ، وكانت هذه آخر نقطة بلغها في هذا الاتجاه . ثم عاد أدراجه إلى سمرقند ، في ٢١ شعبان ٨٠١ هـ/ ٢٩ نيسان ١٣٩٩ م[٢] .

---

(١) يزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٧٣ ـ ٩٠ ؛ شبولر ، العالم الإسلامي ، ص ١٢٤ .

(٢) يزدي ، المصدر نفسه ، ص ٩٩ ـ ١٠٣ و ١١٢ .

سابعاً: حروب تيمورلنك في أذربيجان وبلاد الكرج

عقب عودة تيمور من الهند ، أحيط علماً باضطراب الأوضاع في أذربيجان وبلاد الكرج ، فغادر سمرقند في ٨ المحرم ٨٠٢ هـ/ ١٠ أيلول ١٣٩٩ م ، وعبر جيحون إلى خراسان ، وأمر حفيده رستم بن عمر شيخ ، حاكم شيراز ، أن يتقدم إلى بغداد للانتقام من حاكمها أحمد الجلايري بسبب إغارته على تبريز ، ولمنعه من مد يد العون إلى الكرج . ثم سار تيمور إلى الرّي ، ومنها إلى قراباغ من دون أن يمر بتبريز ، وكان أول ما بدأ به هو بلاد الكرج (كان قد أغار عليها للمرة الأولى عام ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٧ م ، وقد ورد ذلك في حينه) ، واستهل عملياته العسكرية بالهجوم ، على وادي « خمشا » الكثير الغابات ، إلى الشرق من تفليس ، واجتاح المدينة ، فهرب جورجي السادس ، ملك جورجيا ، إلى الجبال المجاورة ، فلاحقه تيمور ، فانتقل جورجي شمالاً إلى بلاد الأبخاز ، على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود . ونهب الفاتح التركي ، وهو يتعقب ملك

جورجيا ، منطقة « سوانيث » (سوانيثيا الحالية) ، ثم قبل اعتذار صاحب جورجيا ، وقفل عائداً إلى قراباغ[1] .

وقبيل المواجهة مع العثمانيين في أنقرة ، وبعدها ، (لنا عودة إلى هذا الموضوع لاحقاً) ، قام تيمور بثلاث حملات عسكرية إلى بلاد الكرج ، إضافة إلى حملة رابعة عقد لواءها لأحفاده .

وكانت أولى هذه الحملات في رمضان ٨٠٣ هـ/ آيار ١٤٠١ م ، بعد عودته من بلاد الشام ، وقبل أن يقوم بالغارة الثانية على بغداد . قاد هذه الحملة ثلاثة من أحفاد تيمور ، وانطلقت من جوار ماردين ، ومرت على حصن أونيك ، ومنه إلى بلاد الكرج ، فاضطر الملك الجورجي إلى إعلان الطاعة لتيمور ، وبخاصة بعد أن بلغت الحملة مدينة « منكول » القريبة من العاصمة تفليس .

وفي مطلع عام٨٠٤ هـ/ آب ١٤٠١ م ، عادت القوات التيمورية إلى الظهور بالقرب من حدود بلاد الكرج ، بعد أن انطلقت من تبريز باتجاه الشمال ،

---

(١) يزدي ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ـ ١٦٢ ، ١٧٠ ـ ١٨٠ .

وعبرت نهر الرّس (أراكس) ، ونزل تيمور في « نخجوان » ، فأقر ملك جورجيا بتبعيته مجدداً لتيمور الذي عاد إلى قراباغ ، في ربيع الثاني من العام نفسه/ تشرين الثاني ١٤٠١ م ، لقضاء فصل الشتاء .

عاود تيمور ، في رجب من العام نفسه (٨٠٤ هـ) ، الحركة إلى بلاد الكرج ، ووصل إلى « شمكور » وسار على ضفاف نهر « كر » قاصداً تفليس ، لكنه وجد نفسه مضطراً لتغيير خطة سيره ، بعد أن وصلته أخبار تحركات السلطان العثماني بايزيد ، فاتجه إلى بلاد الروم ، وتمكنت قواته التي عبرت منطقة « بيك كول » ، في طريقها إلى بلاد الروم ، من احتلال قلعة « ترتوم » الكرجية الحصينة .

وبعد الانتهاء من اجتياح بلاد الروم ، عام ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٣ م ، عاد تيمور إلى بلاد الكرج ، ووقف عند مدينة قارص ، فأسرع جورجي ، ملك جورجيا، لاسترضاء الفاتح التركي ، من دون أن يجد لديه أذناً صاغية .

بدأت العمليات الحربية في المحرم ٨٠٦ هـ/ تموز ـ آب ١٤٠٣ م ، بحصار حصن « كورتين » ، على ضفة نهر آلجت ، فسقط الحصن بعد حصار دام تسعة أيام ، ثم تقدم تيمور نحو الشمال ، واجتاح المناطق التي

مر بها ، ووصل إلى بلاد الأبخاز ، في سواحـل البحر الأسود الشمالية الشرقية ، وقرر بعدها الرجوع ، بعد أن أبدى ملك جورجيا استعداده لدفع الجـزية المفـروضة عليه كل عام . وعـرّج إلى تفليس ، وعبر نهر كر إلى ضفته الجنوبية وأعاد إعمار مدينة بيلقان المهجورة ، ثم انتقل إلى قراباغ ، واجتاز نهر الرّس ، في ١٤ رمضان ٨٠٦ هـ/ ٢٨ آذار ١٤٠٤ م ، قاصداً ما وراء النهر إلى سمرقند ، بعد غياب استمر خمس سنوات .

ثامناً: حروب تيمورلنك ضد المماليك

I ـ البدايات (٧٩٥ هـ/ ٩٦٧ هـ)

حصل الاحتكاك الأول بين تيمور والمماليك ، عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م ، عندما أغار الفاتح التركي على الرحبة ، إثر عودته من العراق ، بعد احتلال بغداد ؛ فقد ذكرت المصادر التاريخية[1] أن تيمور لم يقف عند « عانة » على الفرات ، بل تقدم غرباً حتى بلغ الرحبة القريبة من دير الزور الحالية ، ونهبها ، ثم انسحب عند سماعه بحركة خان القبجاق في شمال أذربيجان .

أما الاحتكاك الثاني ، فكان عام ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م ، وهو في طريق العودة من العراق أيضاً ؛ فبعد أن غادر تيمور بغداد نحو الشمال ، أغار على الرها وسلبها ، إلاّ أنه لم يمكث فيها سوى يومين (١٠ ـ ١٢

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

ربيع الأول ٧٩٦ هـ/ ١٤ ـ ١٦ كانون الثاني ١٣٩٤ م)[١] ، ثم انسحب منها باتجاه ماردين ، وتابع طريقه شمالاً للتصدي لتوقتميش خان الذي كان يتوقع منه غارة مفاجئة عبر عتبة دربند .

II ـ اجتياح شمال الشام (٨٠٣ هـ ١٤٠٠ م)

مهد تيمور لغزو الشام بالإغارة على ملطية والاستيلاء عليها ، مطلع عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م ، ثم توغل في بلاد الشام ، فأمر السلطان فرج بن برقوق المملوكي نواب الشام بتجهيز قواتهم ، وإرسالها إلى حلب ، بعد أن عقد لواء القيادة العامة في بلاد الشام لنائب دمشق الأمير « سودون » .

نجحت القوات التيمورية في الاستيلاء على القلاع الواقعة إلى الجنوب من ملطية (التي سقطت في ٢٥ المحرم ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م) ، قبل أن تظهر أمام أسوار حلب . وكان أهم هذه المواقع : قلعة بهسنا ، وقلعة الروم ، وعين تاب (عينتاب) ، ثم نفذ المغيرون إلى « الباب » ، وبزاغة[٢] ، في شمال شرقي حلب .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ٣/٢ ، ص ٨٠٢ .
(٢) المصدر نفسه، ٣/٣ ، ص ١٠٢٩ ـ ١٠٣٠ ، ١٠٣١ .

وفي التاسع من ربيع الأول ٨٠٣ هـ/ ٢٩ تشرين الأول ١٤٠٠ م ، حاصر تيمور حلب ، وحصلت عدة مناوشات بين قواته والقوات المملوكية المحاصرة ، ثم وقعت المعركة الفاصلة ، في ١١ ربيع الأول من السنة ، وانتهت بسقوط حلب في اليوم التالي[١] ، ثم سقطت القلعة في ١٤ ربيع الأول[٢] .

وبعد دخوله حلب ، أرسل تيمور ابنه ميرانشاه إلى حماه واحتلها بعد حصار قصير ، واستعصت القلعة . ولما قدم تيمور إلى حماه في طريقه إلى دمشق ، مرّ على سلمية ، شرقي حماه ، واستولى على قلعة حماه[٣] ، ثم سار إلى حمص التي سقطت سلماً ، وتوجه إلى بعلبك ، وأمر فرقة من قواته بالتقدم إلى بيروت وصيدا . ومن بعلبك توجه تيمور إلى دمشق[٤] .

---

(١) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ١٠٣١ ـ ١٠٣٢ ؛ ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ١٠٣٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦ ؛ Grousset, Empire, P. 527.

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٣٨ ؛ Ibid., P. 527.

III ـ احتلال دمشق (٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م-١٤٠١ م

انطلق تيمور من بعلبك ، وتقدم في سهل البقاع باتجاه دمشق التي عززت دفاعاتها بقوات حضرت إليها من القاهرة بقيادة السلطان الناصر فرج نفسه .

وصلت قوات تيمور إلى قطنا ، إحدى ضواحي دمشق ، وأخذت تتهيأ لاقتحام المدينة . .

وحصلت اشتباكات عدة على شكل مناوشات ، بين القوات الغازية والجيش المملوكي ، كان أهمها الاشتباك الذي وقع في ١٨ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ/ ٥ كانون الثاني ١٤٠١ م ، حيث تمكن المماليك من إلحاق الهزيمة بأعدائهم ، إلّا أن معركة هامة وقعت في اليوم التالي ، (معركة الكسوة جنوب قبة يلبغا) ، تراجع على أثرها المماليك إلى قبة يلبغا (قرب دمشق) . ثم استؤنف القتال في اليوم التالي (٢٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ) ، وأغار جند تيمور على قبة يلبغا ، فاضطر السلطان فرج للتراجع باتجاه دمشق إلى موقع بئر الأعمى (جنوبي قبة يلبغا التي تقع بدورها في جنوب دمشق) ، ومنها انسحب في ٢١ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ/ ٨ كانون الثاني ١٤٠١ م ، عبر قبة السيار إلى دمّر ، فإلى صفد

ومنها انتقل إلى الديار المصرية[١] .

أحـدث انسحاب السلطان فـرج بلبلة في صفـوف المدافعين عن دمشق ، فأغلقوا أبواب المدينة، استعداداً للدفاع عنها أمام الغزاة .

بـدأت القوات المغيـرة الهجـوم على دمشق ، من المناطق الجبلية القريبة منها (سفوح جبل قاسيـون) . ولما اشتد الضغط على المدينة ، طلب أعيانها من تيمور وقف القتـال ، فاستجـاب لطلبهم لقـاء شروط فـرضها عليهم[٢] .

وفـي يـوم الأحـد ٢٣ جمـادى الأولى ٨٠٣ هـ/ ١٠ كانون الثاني ١٤٠١ م ، دخل تيمور دمشق من الباب الصغير[٣] . أما قلعة دمشق ، فقد صمدت إلى حين ، ثم سقطت سلماً بيد الغزاة في مطلع العشر الثالث من رجب من السنة نفسها[٤] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ٣/٣ ، ص ١٠٤٠ ـ ١٠٤٥ ؛

Grousset, Op. Cit., P. 528.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤٦ ؛ Ibid., P. 528.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٤٧ ؛ ابن عربشاه ، عجائب ، ص =

وفي رجب ٨٠٣ هـ/ ١٧ شباط ١٤٠١ م[1]، غادر تيمور دمشق، واتجه جنوباً وتوقف برهة قصيرة في الغوطة، ثم تقدَّم شمالاً، ماراً بالنبك وقارا إلى حمص، ونهب ضواحيها، من دون أن يدخل المدينة، ثم تابع حركته نحو حماه، وأحرق بعض مساكنها. ولما وصل إلى حلب، لم يشأ أن يدخلها مرة ثانية، فاكتفى بالتوقف في «الجبول»، من ضواحي حلب الشرقية، ومن هناك أمر الحامية التي أبقاها بقلعة حلب بإحراق المدينة وتخريب ما تبقى من دورها (١٧ شعبان ٨٠٣ هـ).

ثم تابع تيمور انسحابه عبر الفرات، عند البيرة، إلى الرّها، وتقدم إلى ماردين، استعداداً للهجوم على العراق.

= ١١٠ ـ ٢١٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٣٢.

(١) المقريزي، المصدر السابق، ص ١٠٥١.

تاسعاً: حروب تيمورلنك ضد العثمانيين

حصلت المواجهة بين تيمور والعثمانيين في عهد السلطان بايزيد يلدروم، وكانت على مرحلتين، فصلت بينهما العمليات الحربية لتيمور في بلاد الشام والعراق وبلاد الكرج، خلال عامي ٨٠٣ هـ و٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م و١٤٠٢ م. مع الإشارة إلى أن الاحتكاكات الأولى بين الطرفين ترجع إلى عام ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م، عندما كان تيمور في طريقه إلى بلاد توقتميش خان (القبجاق) قادماً من غزوته الأولى لبغداد.

I ـ المرحلة الأولى (٨٠٢ ـ ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م)

ـ تحرك تيمور عام ٨٠٢ هـ، من قراباغ إلى حصن «أونيك»، شرقي الأناضول، مستغلاً انشغال السلطان بايزيد في حصار القسطنطينية، وتوغل في أراضي السلطنة العثمانية، تمهيداً للإغارة على سيواس التي حاصرها في ١٧ ذي الحجة ٨٠٢ هـ/ ٩ آب ١٤٠٠ م، فسقطت بيده في ٥ المحرم ٨٠٣ هـ/ ٢٦ آب ١٤٠٠ م،

وانتقل إلى البلستين (البستان) وملطية وسيطر عليهما ، ثم غادر بلاد الروم إلى الشام .

II ـ المرحلة الثانية (٨٠٤ ـ ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ م)

انطلق تيمور من بلاد الكرج ، عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠٢ م ، إلى مدينة « منكول » ، ثم غادرها في شعبان (نيسان) ، وبرز إلى أونيك ، في رمضان ٨٠٤ هـ/ أيار ١٤٠٢ م ، وأغار على مدينة « كماخ » الحصينة ، عند المجرى الأعلى للفرات ، واحتلها في شوّال من العام نفسه/ حزيران ١٤٠٢ م[١] ، ومنها تقدم إلى سيواس .

أقام في سهول سيواس عرضاً عسكرياً لقواته ، فاضطر بايزيد لرفع الحصار عن القسطنطينية[٢] ، والتحرك شرقاً إلى « توقات » ، على مسيرة ١٥ يوماً من سيواس .

وبدلاً من أن يتحرك من سيواس إلى الشمال الغربي

---

(١) ابن عربشاه ، عجائب ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٩ .

باتجاه توقات ، حيث تتجمع قوات بايزيد ، اتجه تيمور إلى الجنوب الغربي ، جاعلاً نهر « قزيل أرماق » حداً فاصلاً بينه وبين عدوه . ولما بلغ « قيصرية » ، أرسل طلائع قواته إلى أنقرة للوقوف على أخبار العثمانيين ، ثم تقدم بالجزء الأكبر من جيشه إلى ضفاف نهر قزيل أرماق ، واجتازه قاصداً مدينة « قير شهر » جنوب شرقي أنقرة. وفي الوقت نفسه ، تحركت قوات بايزيد من توقات ، وتمركزت في السهول الواقعة إلى الشمال الشرقي لأنقرة .

استدرج تيمور القوات العثمانية إلى الضفة الشرقية لنهر قزيل أرماق ، ودارت معركة حاسمة ، بجوار أنقرة ، (معركة أنقرة) بين قوات تيمور وبايزيد ، في آخر عام ٨٠٤ هـ/ تموز ١٤٠٢ م ، أسفرت عن انتصار تيمور ، ووقع بايزيد في الأسر[١] .

وعقب معركة أنقرة واحتلال المدينة ، انتقل تيمور إلى كوتاهية ، ومنها أرسل قواته غرباً وجنوباً للإجهاز على المدن العثمانية ونهبها .

---

(١) ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ ؛ القرماني ، المصدر السابق ، ص ١٩ ـ ٢١ .

وبعد أن مكث تيمور شهراً في كوتاهية ، تقدم منها ، عام ١٤٠٣ م ، في ربوع الأناضول ، إلى « تنغوزلغ » ، « وكزل حصار » ، و « أياسليق » ، وانطلق منها للإغارة على « أزمير » ، ثم انسحب من بلاد الروم ، عن طريق قيصرية ، وسيواس ، وأرزنجان وأرزن روم ، قاصداً اجتياح بلاد الكرج للمرة السابعة .

عاشراً: محاولة تيمورلنك غزو الصين

لـم يحصل هذا الغزو ، رغم الاستعدادات الكبيرة ، وذلك بسبب مرض الفاتح التركي ، ووفاته في أوترار ١٧ شعبان ٨٠٧ هـ/ ١٨ شباط ١٤٠٥ م .

وبـوفـاة تيمـور ، تنازع أبنـاؤه فيمـا بينهم لسنـوات عدة . وأخيراً فاز ابنه شاه رخ بخلافته، بعد أن كان نائبه في خراسان . وقـد اضطر شـاه رخ المسالم أن يـواجه حـركات التمـرد التي قام بهـا بعض قواده ، والأعمـال المعـادية لـدولـة قبيلة الشـاه السـوداء (قـرا ـ قـوينلو) التـركمـانيــة التي أسسهـا أوزون في أجــزاء إيــران الغربية(١) .

وبعـد شاه رخ، تعاقب على عرش الدولة التيمورية ثلاثة ملوك (ألغ بك ، وأبو سعيد وحسين بايقرا) . وفي

---

(١) شبولر ، العالم الإسلامي ؛ ص ١٢٦ ؛
Grousset, Empire, P. 535 - 541.

عهد ثالثهم (حسين بايقرا) ظهر إسماعيل الصفوي ، في غربي إيران ، ونجح في السيطرة على بلاد إيران الأصلية ، واضطر ابن حسين بايقرا ، الذي خلف والده في الحكم للاعتراف بسلطة الأسرة الصفوية(١) . وهكذا فقد أحفاد تيمور سيادتهم على ما وراء النهر إلى أن قدر لأحدهم ، ويدعى « بابر » أن يؤسس امبراطورية جديدة في الهند ، مستفيداً من الاضطرابات ، وحالة الفوضى التي كانت تسود تلك البلاد ؛ فكان تدخله في شؤون الهند ، ما بين عامي ١٥٢٥ ـ ١٥٢٦ م ، بداية فصل جديد في تاريخها ، أي فترة الامبراطورية المغولية التي ضمت سلطنة دلهي ، ومعها إمارات عدة مسلمة ، ظهرت في الهند ، منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

---

(١) شبولر ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢٩ وما بعدها .

فهرس الأعلام والجماعات والأقوام

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

فهرس الأماكن

— ب —

ـ ت ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

فهرس المعارك

مصادر ومراجع الدراسة

- ابن الأثير ، عز الدين علي ، الكامل في التاريخ ، م ٩ ، بيروت ١٩٦٧ م .
- ابن أيبك الدواداري ، أبو بكر بن عبدالله ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٩ ، تحقيق هـ. ر. رويمر . القاهرة ١٩٦٠ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، م ٥ ، بيروت ١٩٦٨ م .
- ابن العبري ، غريغوريوس الملطي ، تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية إسحق أرملة ، وقدم له جان موريس فييه ، بيروت ١٩٨٦ م .
- ابن عربشاه ، أحمد بن محمد ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .
- ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرّزاق ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد . بغداد ١٣٥١ هـ .
- أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل ، المختصر في أخبار

البشر ، ج ٣ ـ ٤ . بيروت . (لا . ت .) .
- بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، نقله إلى العربية أحمد السعيد سليمان . القاهرة ١٩٥٨ م .
- الجويني ، عطا ملك ، تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) ، المجلد الأول ، نقله عن الفارسية محمد التونجي . دمشق ١٩٨٥ م .
- رشيد الدين ، فضل الله بن أبي الخير ، جامع التواريخ ، م ١ ، (تاريخ هولاكو) ، نقله عن الفارسية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد الصياد . القاهرة ١٩٦٠ م .
- رمزي (م . م .) ، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، المجلد الأول . أورنبورغ ١٩٠٨ م .
- شبولر (ب) ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى . دمشق ١٩٨٢ م .
- الصياد ، فؤاد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ١٩٧٠ م .
- غروسيه (ر) ، جنكيز خان قاهر العالم ، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى ، دمشق ١٩٨٢ م .
- فهمي ، عبد السلام عبد العزيز ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، القاهرة ١٩٨١ م .

- القرماني ، أحمد بن يوسف ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، م ٣ ، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد . بيروت ١٩٩٢ م .
- المقريزي ، تقي الدين أحمد ، السلوك لمعرفة دول المملوك ، ج ١ ، تحقيق مصطفى زيادة وج ٣ ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ م و١٩٧٢ م .
- النسوي ، محمد بن أحمد ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي . القاهرة ١٩٥٣ م .
- ياقوت الرومي ، شهاب الدين ، معجم البلدان ، ج ٣ ، بيروت ١٩٧٩ م .
- يزدي ، عز الدين علي ، ظفرنامه (١ - ٢) إشراف وتحقيق محمد عباسي . بيروت ١٣٣٥ هـ .
- اليوسفي ، موسى بن محمد ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط . بيروت ١٩٨٦ م .
- D'Ohsson (C.M.), Histoire des Mongols dépuis Tchinguiz kan jusqu'à Timour bey. Vol. III, La Haye et Amsterdam, 1835.
- Grousset, (R.), L'Empire des steppes, Paris 1980.
- Lemercier - quelquejay (C.), La paix Mongole. Paris.
- Lewis (B.), ar. «'Ayn Djā lūt», EI_2, I, P. 810 - 811.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني
حروب المغول من أيام أوكتاي حتى عهد قوبيلاي قاآن

الفصل الثالث
حروب المغول في عهد هولاكو
وخلفائه من إيلخانات إيران

الفصل الرابع
الحروب في « عصر تيمورلنك »